البدوي الملثم

ديك الحن الحمصي

obeikandl.com

طبع بمطبعة التعاون والتوفيق بحمص
١٩٤٨

الإهداء

« الى قرينتي التي تقاسمني
نصيبي من الحياة
مرًّا وحلواً
أهدي كتابي هذا »

القدس « البروى الملثم »

obeikandl.com

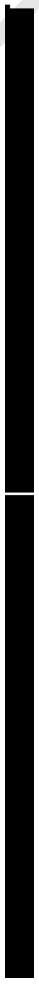

obeikandl.com

« ربنا آتنا من لدنك رحمةً ، وهيء لنا من أمرنا رشدا »

« سورة الكهف »

obeikandl.com

رشحات قلم

١ — عكفت فيما مضى على دراسة شعراء — الشيعة — ومبلغ أثرهم السياسي في الأدب العربي ، فأفضت بي تلك الدراسة إلى الاعجاب بشاعر شيعي شامي هو عبد السلام بن رغبان الملقب بـ « ديك الجن الحمصي » الذي رَفعَ عَلَمَ التشيع خفاقاً ... وانبرى يتغنى بمآثر آل البيت وأمجادهم ، ويُنشد البسيط الاسلامي من روائع شعره ما عزّز الشيعة وأنصارهم .

٢ — وكأني بالشاعر البائس المُشرد (جميل دياب) البيروتي الأصل و (الثائه) اليوم في بوادي شرقي الاردن لسان من ألسنة آل البيت وسيف من سيوفهم المسلولة ، يلتقي ، رغم فارق الزمن ، مع (ديك الجن الحمصي) في صعيد واحد عند ما هتف صباح يوم في مدينة (الكرك) القائمة على سيف البادية والجاثمة في قلب الصحراء ، بقصيدة مطلعها .

قد علّمتنا الحادثات بكرّها ... حُقباً ولم تبرح على الازمان
لا تُسلم العرب الأباةُ زمامها ... إلاّ لهذا الحيّ من عدنان

٣ — وفي هذه الفصول ستطالع صفحة أدب ذات طابع سياسي وأخرى صفحة غرام خطّها ديك الجن بالدمع الهتون عندما استلّ خنجره من وسطه وأهوى به على غادة أحبّها إلى درجة العبادة والتقديس ، ثم ما لبث ان طوّحت به نزغات الشر إلى التجنّي على عروس أحلامه مما ستراه جملةً وتفصيلاً في هذا اللحق تناولت فيه شاعراً أقام على حب آل البيت وأنشد في نصرتهم سوراً ترتاها الأيام وتُنغّصها الليالي على كر العصور وحبّاً مستهاماً أحبّ ... وقتل ... وندم ... ثم مات ... !

(بيت المقدس) « البروى الملثم »

دِيك الجن الحمصي

١٦١ — ٢٣٥ هـ و ٧٧٧ — ٨٥٠ م

تمهيد

يحسب مؤرخو الأدب العربي — القرن الثالث — من أزهى عصور العربية إذ نبغ في هذا القرن أربعة من شعراء الشام هم : (العتابي) و (أبو تمام) و (ديك الجن الحمصي) و (البحتري) الذين أضفوا على العربية فرائد شعرية وعطروها بنفحات مجنّحة ذات روعة وشذى ، تمتاز عن غيرها من المعلقات والخرائد التي هتف بها شعراء الجاهلية والاسلام ، فنزع هذا الرعيل الموهوب بالشعر العربي منزعاً بعيداً عن الوقوف على المنازل والاطلال .

« قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

« وعاش شعراء الشام [1] في قطر إن أعوزتهم به الفصاحةُ ، رفدتهم به البادية ، وإن عانوا بها جفاء الاعراب أوَوْا الى حضارة زاخر بحرها ، دَعْ عنك جمال القطر واعتدال طبيعته » . قال أبو منصور الثعالبي :

« لم يزل شعراء عرب الشام أشعر من شعراء عرب العراق ، وما يجاورها في الجاهلية والاسلام ، والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً عن سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم » .

وأبرز طابع يمتاز به شعراء الشام تهذيب شعرهم ، وشاعرهم مهما كان مطبوعاً سريع الخاطر فانه لا يرمي الكلام على عواهنه ولا يرسله إرسالاً ، بل ينظر في أعقاب قوافيه

---

(١) (شعراء الشام) لخليل مردم بك صفحة ٥ و ٦

ويعود عليها بالتنقيح » وقد أشار الى ذلك عديّ بن الرقّاع أحد شعراء بني أمية وكان منزله في دمشق وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم وقد أنشد يوماً » :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّمَ ميلها وسنادها
نظرَ المثقفِ في كعوب قناته حتى يقيم ثقافُه منآدها

وكان يطعن على شعر (كثير) عزّة بقوله :

« هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قرّ الشام جمدَ وهلك ! »

و « ديك الجن الحمصي » كما ذكر صاحب (الأغاني) : « يذهب مذهب الشاميين في شعره » وفي هذا يقول الثعالبي : كان الصاحب بن عباد يعجب بطريقة الشاميين المثلى التي هي طريقة (البحتري) في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة »

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول :

« ما فتق قلبي وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف حدّ لساني ، وبلغ بي هذا المبلغ إلاّ تلك الطرائف الشامية ، واللطائف الحلبية ، التي علقت بحفظي وامتزجت بأجزاء جسمي ! »

* * *

وبعد هذا الوصف يجدر بنا أن نتساءل : ما مذهب الشاميين في شعرهم ؟ »

« تبلّج فجر[1] القرن الثالث وكان الشعر العربي قد أتمّ طور انتقاله النسبي من البداوة الى الحضارة على يد بشار بن برد وأصحابه . ومن مقتضيات الحضارة التنوق في كل شيء ، فشمل ذلك التنوق الشعر ، ونشأ عنه تتبع البديع . وكان (المتنبي) في أوائل القرن الثالث فسلك تلك الطريقة وزاد بها على يد بشار وتلاه « ديك الجن » فأقبل على الصنعة التي ظلت سائغة لصدقه في شعره فانه لم يستجدِ به أحداً بل قصره على النسيب ونصرة آل البيت ورثاء عشيقته وبعض أصدقائه ووصف الخمر ، وفي زمن « ديك الجن » نبغ (أبو تمام) الطائي فشغف بالجزالة وغاص على المعاني البعيدة وانصرف الى الصنعة وغلا فيها حتى عرفت هذه الطريقة بـ « مذهب أبي تمام » ، فهؤلاء الأربعة الذين ظهروا من أوائل القرن الثالث الى أواخره مطبوع كلهم على قول الشعر وان كانوا متفاوتين في ذلك الطبع »

---

(١) (شعراء الشام) ص ٩ و ١٠

أستاذ أبي تمام

ذكر عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي إنه كان جالساً عند « ديك الجن » فدخل عليه محدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاّه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره فسلّمه إليه وقال : « يا فتى تكسب بهذا واستعنْ به على قولك » فلما خرج سألته عنه فقال : « هذا فتىً من أهل جاسم »[1] يذكر إنه من طيء يكنى (أبا تمام) واسمه حبيب بن أوس وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع » وعمّر ديك الجن إلى أن مات أبو تمام ورثاه بقصيدة مطوّلة تحسب من بارع المراثي . ومنها قوله :

مات حبيب فمات ليث وغاض بحر وباخَ نجم
همت عيون الردى اليه وهي إلى المكرمات تسمو
ما أمك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أمُّ

ولقد ألفيتُ تعزيزاً لرواية الزبيدي ما ذكره ابن رشيق في (العمدة)[2] حيث يقول : « وقد كان أبو تمام أخذ عن ديك الجن ، شاعر الشام ، أمثلة من شعره يحتذي عليها فسرقها »

مع أبي نواس

لما اجتاز أبو نواس بحمص قاصداً مصر لامتداح الخصيب سمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً ان يظهر لأبي نواس إنه قاصر بالنسبة إليه ، فقصده أبو نواس في داره وهو بها فطرق الباب واستأذن بالدخول عليه فقالت الجارية : « ليس هو ههنا ! »

غير ان (أبا نواس) عرف هدفه فقال لها : قولي له أخرج فأنت أشعر الانس والجن وفاز أهل العراق بقولك :

مورّدة من كفّ ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج إليه واجتمع به وأضافه ، وهذا البيت من جملة أبيات هي :

---

(١) احدى قرى حوران (٢) ج ١ ص ٨٣

بها غير معدول فداو خمارها ... وصل بحبالات الغبوق ابتكارها
ونل من عظيم الورد كل عظيمة ... اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها
وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغر ... ولا تسق إلاّ خمرها وعقارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفه ... من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها ... فتأخذ من أقدارنا الراح ثارها

والساعة أود ان أستصحب القارىء النابه الى مطاف شذيّ الفوح ، معطر الجنبات ، التاقي معاً نظرات عميقة الغور ، بعيدة المدى ، على حياة شاعر خفيف الروح ، مجنح القافية سارت روائعه شرقاً وغرباً ، وتناشد الركب المحبون ، في ادلاجهم وتأويبهم ، قصة غرام .. جمع فيها (كيوبد) بين قلبين أصاخا لهاتف الحب ، فضربا بالتقاليد المحنطة البالية عرض الأفق ، وسارا الى هيكل (كيوبد) يبوحان بحبهما ويعلنانها — حرباً — على نواميس وشرائع اصطلح الناس عليها جهلاً وتزمتاً ، واسترسل العاشقان في ترداد ما جاء على لسان الصوفي الهائم محيي الدين بن العربي القائل :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهتْ ... ركائبه فالحب ديني وإيماني
لنا أسوة في بشر هند وأختها ... وقيس وليلى ثم ميّ [1] وغيلان

---

(١) مي (مي) ابنة طلابة بن قيس بن عاصم الغساني وكان جدها (قيس) من أجلاء ملوك العرب وافاضلهم وكانت (مي) عذبة الكلام بليغة ، غزالة العينين ، زجاء الحاجبين ، مر عليها غيلان بن معدي الكناني المعروف بذي الرمة وكان غيسانياً مليحاً وشاعراً فصيحاً فأدركه الظمأ فمال الى سرادق علا عروضه واطنابه واذا بـ (مي) تمتط رأسها وقد أسبلت شعرها وكأنه عثاكيل النخل ووجهها يشف من خلاله فقال غيلان : هل من إداوة تنفي الاوام ، وتشفي من السقام ؟ فأسرعت (مي) الى ماء شيب باللبن وسقته ، ثم رحبت به وأنزلته فجلس يأكل مما هيأت وعيونها تروي له عن الايام ما خبأت .
فما انصرف آخر النهار إلا وفي قلبه لاعج وأوار كأنهما مارج من نار فعطف يعاودها على طول الشقة وفرط المشقة وينشد :

وكنت اذا ما جئت مياً أزورها ... أرى الارض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها ... اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

(راجع كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (لزينب نواز العاملي)

لكنّ بلابل الحب هذه وَجمت عن شدوها وهتافها بعد طرفة عين ، وصوّح روض الغرام وأقفر من القيصوم والخزامى واستحال الى قفر يباب بعد ان كان ملهى لسمّار الليل ... ومرتعاً لرعاة الشاء والمعيز .

* * *

غلب على عبد السلام بن رغبان لقب «ديك الجن »[1] وكان شاعراً مجيداً يذهب في شعره مذهب (أبي تمام) وغيره من الشاميين وأصله من أهل سلمية [2] ومولده في مدينة حمص [3] سنة ١٦١ هـ . وتوفي في خلافة المتوكل سنة ٢٣٥ أو ٢٣٦ هـ .

وجده الأعلى تميم أول من أسلم من أجداده على يد حبيب بن مسلمة الفهري وذلك في

---

(١) زعم (الدميري) نقلا عن الامام العالم زكريا بن محمد (القزويني) في كتابه (عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات) ان « ديك الجن » دويبة توجد في البساتين قال عنها بليناس الحكيم : اذا أتيت في خمرة عتيقة وتركت في محارة ودفنت وسط الدار لايرى فيها شيء من الارضة »

والارضة دويبة كنصف العدسة تأكل الخشب وهي التي يقال لها السرفة .

ولعله لقب بـ « ديك الجن » لكثرة ترداده على البساتين ومعاقرته الصهباء في تلك الرياض الغناء وقد اصطلح المستشرقون على تسمية المترجم له « Cook of the Demons »

(٢) (سلمية) بلدة صغيرة قديمة كان لها شأن وذكر في الاسلام ففيها جرت المعركة الحاسمة التي قضت على دولة الامويين وآمال أتباعهم ، ومنها نشأت الدعوة الاسماعيلية في الشام وانتشرت وفيها ولد أول خليفة فاطمي، وهي الآن قرية كبيرة في شرقي حماه الى الجنوب وشرقي حمص الى الشمال .

(٣) (حمص) مدينة عرفها (ابن حوقل) في كتابه (المسالك والممالك) بقوله :

مدينة في مستواة خصبة ، صحيحة الهواء والتربة ، في أهلها خيال مفرط (وفي بعض النسخ جمال مفرط) وليس بها عقارب أو حيات واذا دخلت الحية أو العقرب اليها ماتت »

وقال (اليعقوبي) في كتابه (البلدان) : ان سكنى العرب في حمص ومعرفتهم بها قديمة وقد ذكرها امرؤ القيس في قوله :

لقد أنكرتني بعلبك واهلها ولابن جريج كان في حمص انكرا

وذكرها الاعشى الكبير ميمون بن قيس في قوله :

ولقد طفت للمال آفاقه عمان فحمص فاوريشلم
فنجران فالرد من حمير فأتى مرام له من إرم

قرية (مؤتة)[١] المعروفة في الفتح العربي الأول وقد أخذ محارباً من المستعربة في جيش هرقل وكان « ديك الجن » من ساكني حمص ولم يبرح نواحي[٢] الشام ولا رحل الى العراق منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد سوى ابن عمه — أبي الطيب — وكان شديد التشعب والعصبية على العرب يقول : ما للعرب [٣] علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلاً قتل به ، ولم نجد الله فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين » .

---

(١) قرية تقع الى الجنوب من مدينة الكرك (شرقي الاردن) وقديماً كانت تطبع فيها السيوف واليها تنسب المشرفية من السيوف ، قال ابن السكيت في تفسير (كثير) :

اذا الناس ساقوكم من الامر خطة لها خطة فيها السلام المشمل
أبى الله للنبع الانوف كأنهم صوارم يجلوها بـ (مؤتة) صيقل

وقد بعث النبي (ص) سنة ثمان بجيش وأمر عليه (زيد بن حارثة) مولاه وقال :

« ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب وان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » فساروا حتى اذا كانوا في تخوم مؤتة لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب . ثم دنا العدو وانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها فلقيتهم الروم في جمع عظيم فقاتل زيد حتى قتل فأخذ الراية جعفر فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فاجتمع المسلمون الى خالد بن الوليد فانحاز بهم حتى قدم المدينة فجعل الذين يحثون عليهم التراب ويقولون : « يا فرار فررتم في سبيل الله ! » فقال النبي (ص) : « ليسوا بالفرار لكنهم الكرار ان شاء الله »

وفيها قال حسان بن ثابت :

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله م خير عصبة تواصوا وأسباب المنية تنظر

(ملخص عن معجم البلدان)

وفي مؤتة قبور الصحابة الثلاثة (رض)

(٢) أجمعت أمهات كتب الادب العربي على ان « ديك الجن » لم يبرح ربوع الشام طوال سني عمره الى أي قطر عربي غير انني وقفت في كتاب (مصر والشام في الغابر والحاضر) لمؤلفه الدكتور أسعد طلس (من منشورات دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٤٥) على رأي جديد لحواه : ان « ديك الجن » زار مصر واليك بالحرف الواحد كما ورد في (الصفحة ٥٦) .

« ... وروى « ديك الجن » انه قد زار مصر بعد رحلة أبي نواس عنها فوجد له اشعاراً كثيرة لا يعرفها غير المصريين » . اهـ

(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٩

يحسب « ديك الجن » في طليعة الشعراء الذين تشيّعوا لآل البيت وتعصبوا لعلي (رض) وفي أوائلهم السيد الحميري ودعبل و « لديك الجن » طائفة من المراثي في الحسين ابن علي بن أبي طالب كان بعضها مشهوراً لدى الخاص والعام ، يندوح بها الشيعة في النجف الأشرف كلما قصدوا كربلاء وخرجوا الى قبر الحسين . ومن ذلك قوله :

يا عين لا للقضا ولا الكتب بكا الرزايا سوى بكا الطرب

وقد كان مبرزاً في الرثاء حتى فضّلوه على أبي تمام ولم يجاره في المغالاة بمدح آل البيت والاسراف في حبهم والسخاء في رثائهم سوى السيد الحميري القائل من قصيدة مطولة لما استقرّ الأمر لابي العباس السفّاح :

دونكموها يا بني هاشم فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها لا تمنعوا منكم لها لابسا
لو خيّر المنبر فرسانه ما اختار إلاّ منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابسا
واستُ من أن تملكوها الى مهبط عيسى ، فيكم آيسا

قال صاحب (الأغاني) :

« كان خطيب أهل حمص يصلي على (النبي) ثلاث مرات في خطبه وكان أهل حمص كلهم من اليمن ، لم يكن فيهم من مضر إلاّ ثلاثة أبيات فتعصبوا على الامام وعزلوه فاحتدم « ديك الجن » غيظاً وأنشد .

سمعوا الصلاة على النبيّ توالى فتفرقوا شيعاً وقالوا : لا ، لا !
ثم استمرّ على الصلاة إمامهم فتحزّبوا ورمى الرجال رجالا
يا آل حمص توقعوا من عارها خزياً يحل عليكم ووبالا
شاهت وجوهكم وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالا !

ومما يمتاز به منظوم « ديك الجن » : اشراق المطلع ورشاقة اللفظ والزهد في الحياة الدنيا والحض على مهادنة المقادير وتقبل أحداث الزمان وصروفه ببسمة المؤمن الصابر على عوادي الأيام ، يشيع ذلك في قصيدة أرسلها عزاءً الى جعفر بن علي الهاشمي :

نغفل والأيام لا تغفل ... ولا لنا من زمن مؤئل
والدهر لا يسلم من صرفه ... أعصمُ في القُنة مستوعِل
يتخذ الشعر شعاراً له ... كأنما الأفق له منزل
كأنه بين شناظيرها (١) ... بارقة تَكْمَن أو تَمْثُل
ولاحُباب (٢) حلتان السُرى ... أرقم لا يعرف ما تجهل
نضناض (٣) فيفاء يرى انه ... بالرمل عانٍ وهو المرمل
يطلب من فاجئة مَعْقِلا ... وهو لما يطلب لا يعقل
والدهر لا يسلم من صرفه ... مُسْرَبِل بالسَّرْد مستيسل
ولا عقنباة (٤) السُّلامى لها ... في كل أفق علق مهمل
فتخاء في الجو خُدَارية (٥) ... كالغيم والغيم لها منقل
آمن من كان لصرف الردى ... أنزلها من جوها منزل
والدهر لا يحجبه مانع ... يحجبه العامل والمنتضل
يُصغي جديداه الى حكمه ... ويفعل الدهر بما يفعل
كأنه من فرط عزٍّ به ... أشوص إذ أقبل أو أقبلُ (٦)
في حب أوفى فله جَحْفَل ... يقدمه من رأيه جحفل
بينا على ذاك إذا عرشت ... في عرشه داهية ضِئْبُل (٧)
ان يكن في العز له مِشْقَص ... ماض فقد تاح له مقتل

* * *

جاد على قبرك من ميت ... بالروح ربٌّ لك لا يَبْخَل
وحنّت المُزْن على قبره ... بعارض نَجْوتَه محفل
غيث ترى الأرض على وَبْله ... تضحك إلاّ أنه يهمُل

---

(١) شناظير الجبل أطرافه وحروفه (٢) الحية (٣) حية نضناض لا تستقر في مكان واذا نهشت قتلت من ساعتها (٤) عقاب عقنباة ذو مخالب حداد (٥) خدارية العقاب سوادها والفتخاء العقاب اللينة الجناح (٦) في عينه قبل وهو دون الحور (٧) الضئبل بضم الباء الداهية

يصلي والأرض تصلي له ... من صلوات معه تسأل
أنت أبا العباس عباسها ... اذا استطار الحدث المعضل
وأنت ينبوع أفانينها ... إذا همُ في سنة أمحلوا
وأنت علاّمُ غيوب الثنا ... ء يوماً إذا تسأل أو تسأل
نحن نجزيك ومنك الهدى ... مستخرج والنور مستقبل
نقول بالعقل وانت الذي ... نأوي إليه وبه نعقل
نحن فدًى لك من أمة ... والأرض والآخر والاول
إذا عفا عنك وأودى بها ... ذا الدهر فهو المحسن المجمل

ثم مات جعفر بن علي ذاك الأمير الهاشمي الذي أغرق « ديك الجن » برفده وعطاياه وكانت تربطه به أواصر مودة وأدب فرثاه الشاعر الحمصي بقوله :

على هذه كانت تدور النوائب ... وفي كل جمع للذهاب مذاهب
نزلنا على حكم الزمان وأمره ... وهل يقبل النصف الألدُّ المشاغب ؟!
ويضحك سن المرء والقلب موجع ... ويرضى الفتى عن دهره وهو عاتب
ألا أيها الركبان والرد واجب ... قفوا حدّثونا ما تقول النوادب
الى أي فتيان الندى قصد الرّدى ... وأيهم نابت حماه النوائب ؟
فيا لابي العباس كم رُدَّ راغب ... لفقدك ملهوفاً وكم خيب عارب
ويا لابي العباس ان مناكباً ... تنوء بما حملتها لنواكب
فيا قبره جُدْ كل قبر بجوده ... ففيك سماء ثرّة وسحائب
فانك لو تدري بما فيك من عُلاً ... علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخاً كنت أبكيه دماً وهو نائم ... حذارا وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الاجر واقف ... ولا أنا في عمر الى الله راغب
أأسعى لاحظى فيك بالأجر انه ... لسعي اذاً مني لدى الله خائب
وما الاثم إلاّ الصبر عنك وإنما ... عواقب حمد ان تُذمّ العواقب
يقولون مقدار على المرء واجب ... فقلت وإعوال على المرء واجب

هو القلب لما حُمَّ يوم ابن أمه ... وهى جانب منه وأسقم جانب
ترشفت أيامي وهنَّ كوالح ... عليك وغالبت الردى وهو غالب
ودافعت في صدر الزمان ونحره ... وأي يدٍ لي والزمان محارب !
وقلت له : خلِّ الجواد لقومه ... وهل ندّ فاردُدْه فانا عصائب
فوالله اخلاصاً من القول صادقاً ... وإلاَّ فحبي آل احمد كاذب
لوَ ان دمي كانت شفاؤك أو دمي ... دم القلب حتى يقضب القلب قاضب
لسلمتُ تسليم الرضا وتخذتها ... يداً للردى ما حجَّ لله راكب
فتىً كان مثل السيف من حيث جئته ... لنائبة نابتك فهو مضارب
فتىً همّه حمدٌ على الدهر رابحٌ ... وان غاب عنه ماله فهو غازب
شمائل ان يشهد فهنَّ مشاهدٌ ... عظامٌ وان يرحل فهنَّ كتائب
بكاك أخ لم تحوه بقرابة ... بلى ان اخوان الصفاء أقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها ... كأنك للدنيا أخ ومناسب
يبرِّد نيران المصائب أنني ... أوى زمناً لم يبق فيه مصائب

* * *

ذمَّ بعضهم القناعة : « فقال هي خلق البهيمة » اذا وجدت أكلت وان لم تجد باتت على الخسف كما قيل :

ولا يقيم على ظلم يراد به ... إلاَّ الأذلان عير الحيّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحد

ولديك الجن أبيات بهذا المعنى جاءت من طراز عالٍ في مغالبة الزمان والحضّ على مصاولته :

لا تقم للزمان في منزل الضيم ... ولا ترتبطك رقةُ حالِ
واذا خفت ان يراعقك العد ... مُ فعذ بالمثقفات العوالي
وأهن نفسك الكريمة للمو ... تِ وقحّم بها على الأهوال
فلعمري الموت أجمل بالحرّ ... من العيش ضارعاً للرجال
أيّ ماءٍ يحول في وجهك الحرّ ... إذا ما امتهنته بالسؤال ؟!

ثم لاسيما وقد عصف الدهر بأهل الندى وأهل النوال
فقليل من الورى من تراه يُرتجى أن يصون عرضاً بمال

ومن أغرب الهجاء هجو الرجل لنفسه وهو ما ذكرته كتب الأدب للحطيئة الذي التمس ذات يوم انساناً يهجوه فلم يجد ... وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أبت شفتاي اليوم إلاّ تكلماً بشرٍّ ... فما أدري لمن أنا قائله ؟!

وجعل يردد هذا البيت ولا يرى انساناً فمال الى حوض ماء ورأى وجهه فقال :

أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقُبّح من وجهٍ وقُبّح حامله !

ثم قول ديك الجن : أيها السائل عني لستَ بي أخبر مني
أنا انسانٌ براني اللـــه في صورة جني !
بل أنا الأعمج في العين فدع عنك التظني !
أنا لا أسلم من نفسي فمن يسلمُ مني ؟!

وقد وصل الى القمة في هذا الباب ابن الرومي فتفنن في رسم الصور المضحكة لأعدائه وخصومه أيما تفنن كقوله في وصف رجل بارد ثقيل :

يا أيها القادم الذي ليس يدري أرصاص كيانه أم حديد ؟
أنت عندي كماء بئرك في الصيف ثقيلٌ يعلوه بردٌ شديد

وقوله : وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرًّا يزول عنها ولا تزول
وفيه أشياء صالحات حماكها الله والرسول
فالكلب وافٍ وفيك غدرٌ ففيك عن كل قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي وما تصول
وأنت من بين أهل سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات لكن اقفاهم طبول
مستفعلنْ فاعلٌ فعول مستفعلنْ فاعلٌ فعول
بيتٌ كمثناك ليس فيه معنىً سوى انه فضول

ومما اشتهر عن ديك الجن شدة التشعب [1] والعصبية على العرب للنيل منهم لا مذهباً يرجع الى عقيدة وايمان ، إذ كيف تتفق سلامة إيمانه مع قوله :

أأترك لذة الصهباء نقداً لما وعدوه من لبن وخمر !
(حياةٌ) ثم (موتٌ) ثم (بعثٌ) (حديث خرافة !) يا أم عمرو !

أو مع قوله : خذ من زمانك ما صفا ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر مدة من ان يحق بالغير

وقريب من هذا قول (الخبارزي)

وذر الهموم نسيئة وتعجل اللذات نقدا

أقام ديك الجن في حمص ولم يبرح ديار الشام ، كما سلف ذكر ذلك ، ولم يرحل الى العراق منتجعاً بشعره ولا متصدياً لاحد إلاّ ما كان من كرهه لابن عمه — أبي الطيب — وعشيرته وولائه لأحمد وجعفر ولديْ علي الهاشمي ، وهي الى الصداقة والولاء أقرب منها إلى استنداء الأكف واستجداء ذوي اليسار ، وهو في هذا المضمار صنو الشاعر الشيعي السيد الحميري القائل يوماً :

أيها المادح العبد ليعطي ان فيه ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارجُ نفع المنزّل المعوّاد
لا تقلْ في الجواد ما ليس فيه وتسمّي البخيل باسم الجواد

قرّر الذين عرفوا ديك الجن عن كثب انه لم يكن مشفقاً على جيبه ، بل كان متلافاً لكل ما ورث عن أبيه وجده من عقار ونشب وكأني بالشاعر القائل :

لا يألف الدرهم المضروب صُرتنا لكن يمرّ علينا وهو منطلق !

قد عنى هذا الشاعر الكاسب الواهب الهاتف يوماً بصحبه في جلسة لهو وسمر :

تمتّع من الدنيا فإنك فاني وإنك في أيدي الحوادث عاني
ولا تنظرنّ اليوم لهواً الى غدٍ ومن لغدٍ من حادث بأمان !
فاني رأيت الدهر يسرع بالفتى وينقله حالين تختلفان

(١) التعصب للعجم على العرب وهو مذهب الشعوبية

فأما الذي يمضي فأحلام نائم وأما الذي يبقى له فأماني !

وقريب من هذا قول (ابن المعتز)

وبادر بأيام السرور فانها مسراع وأيام الهموم بطاء
وخلِّ عتاب الحادثات لوجهها فإن عتاب الحادثات عناء
تعالوا فسقّوا أنفسا قبل موتها ليالي ما يأتي وهنّ وراء

وما كاد الشاعر ينشد صحبه ما فيه الحضّ على اغتنام اللذات ، ومباهج الحياة ، حتى استخفهم الطرب فتناول ظريف منهم عوداً شده وداعب اخوان الصفاء بمقطوعة نظمها شاعر حمص في الحثّ على البذل ومجانبة الامساك فهزّهم الشدو ورخامة الصوت الى احتساء الكؤوس وترداد ما نظمه الشاعر الفيلسوف « ديك الجن » وهو :

قالوا : السلام عليك يا أطلال قلت : السلام على المحال محال
حاج الشقيّ مراده دِمنُ البلى ومراد عيني قلة وحجال
لأنادمنّ الراحَ وهي زلال ولأطرقنّ البيت فيه غزال
ولأتركنّ حليلها وبقلبه حرقٌ وحشو فؤاده بلبال
ماذا الغنى والبخل مالك من غنى وكذاك يا ذا المال مالك مال
قد تسلم الأوكال وهي مواكل للترهات وتقتل الأبطال
ورجال هذي النائبات واذ رأوا شظفاً من الأيام فهي رجال

* * *

كان لديك الجن ابن عم يكنى (أبا الطيب) دأب على نصحه طوراً وزجره آخر عن معاقرة الخمرة والعكوف على القصف والملذات ، وكان يتصدّى له هازّاً عصا التأديب ، ومجالس الشراب مكتظة بالمجان وأهل الخلاعة فيستخف بهم (أبو الطيب) ويسرف في تقريعهم والتنكيل بهم ، فلما كثر ذلك على ديك الجن تميز غيظاً ، وضاق بابن عمه ذرعاً ، فاعتلج الحقد في صدره وهجاه بأبيات مرّة . منها :

مولاتنا يا غلام مبتكره فباكر الناس لي بلا نظره
عدت على اللهو والمجون على أن الفتاة الحيية الخفره

بحبها لاعجٌ منها وبي حرق ... مطوية في الحشا ومنتشره
ما ذقت منها سوى مقبلها ... وفم تلك الفروع منحدره
قد ذكر الناس عن قيامهم ... ذكري بعقلي ما أصبحت نفره
معرفتي بالصواب معرفة ... غرًّا أما عرفتم النكره ؟ ؟ !
يا عجباً من (أبي الخبيث) ومن ... سروجه في البكائر الدثره
يحمل رأساً تنبو المعاول عن ... صفحته والجلامد الوعره
كم طربات أفسدتهن وكم ... صفوة عيش غادرتها كدره
لولا البغال ارتقت سنداً ... فيه لمدت قوائماً خدره !
ولا المجانيق فيه معنية ... الف تسامي والف منكدره
أنظر الى موضع المقص من الهامة تلك الصبيحة العجره
فلو أخذتم لها المطارف عرًّا ... نيةٌ صنعة اليد الخبره
إذاً لراحت أكف جلستهم ... كليلة والأداة منكسره
وكم اذا ما رأوك يا ملك المو ... ت لهم من أنامل خصره
وكم لهم دعوة عليك وكم ... قذفة أم شنعاء مشتهره !
كريمة لومك استخفّ بها ... ونالها بالمثالب الاشره
قفوا على رحلة تروا عجباً ... في الجهل يحكي طرائف البصره
يأكل مني وكل طالعة ... نحس وكل ساعة عسره
سبحان من يمسك السماء على الأرض وفيها أخلاقك القذره

كم مرة أجمع أولئك المجان أمرهم وعزموا على الفتك بـ (أبي الطيب) هادم لذاتهم ومفرّق حلقاتهم، الذي دأب على العبث بأشراقهم الروحي وترويعهم كلما استطابوا الشراب وجلسوا يقصفون . . . غير أن ديك الجن كان يصد عن ابن عمه حملاتهم، وينجيه من فتكاتهم، ورغم جميله فلم يرع لديك الجن حرمة ولا لصحبه ذماماً بل سدر في غوايته وأمعن في محاربتهم حتى كانوا يرون فيه (غراب البين) كلما روّع سامرهم، وأقبل على جمعهم لم يفتّ ذلك الازعاج في عضد العصبة بل واصلوا أنسهم غير ملتفتين الى ذلك العلج،

وكأني بديك الجن في عكوفه وصحبه على معاقرة الصهباء واغتنام اللذات ينشد الخصم المترنم ما جاء على لسان الشاعر الأردني النابغ مصطفى وهبي التل القائل يوماً من قصيدة بعنوان (بقايا ألحان وأشجان) :

يا صاحبيَّ خذا عني فديتكما سرّ الصبابات والألحان والحان
وناهدا الشوق هل شامت مرابعه وجداً كوجدي وتحناناً كتحناني

* * *

ماذا على الناس من صفوي ومن كدري ماذا على الناس من ربحي وخسراني !
ماذا على الناس من سكري وعربدتي ! ماذا على الناس من شكي وإيماني !
عليّ بالكأس أستجدي صبابتها حسناء من مؤاساة وسلوان !

على هذه الوتيرة سار ديك الجن ورفقته مع أبي الطيب الذي ما تورّع يوماً عن تكدير صفوهم والتجني عليهم حتى أفضى به المطاف الى مأساة دامية لم يرو التاريخ العربي لها مثيلاً وهذا ما ستقرأه في فصلي (غرام الشاعر) و (انتقام الشاعر) الذي تعشق جارية نصرانية من أهل حمص اسمها (ورد) وأسرف في نجواها واستجار بـ (كيوبد) اله الحب . . . ففوّق هذا سهمه المعضوض الى الغزال النافر . . . فخرّ الظبي الغرير صريعاً .. وفي ذلك أنشد الصبّ المستهام :

انظر الى شمس القصور وبدرها والى خزاماها وبهجة زهرها
لم تبكِ عينك أبيضاً في أسود جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها من ريقها ، من لا يحيط بخبرها
تسقيك كأس مدامة من كفها مقرونة بمدامة من ثغرها

وقبل أن نُفضي بك الى الحديث عن غرام الشاعر وانتقامه ، من فتاة أحلامه ، لا بد أن نلمع الماعاً عابراً الى ما رواه (أبو الفرج) في (الأغاني) عن غلام من أهل حمص اسمه (بكر ابن رستم) كان ديك الجن مفتوناً به وذات ليلة أنشد فيه وقد جلسا يتسامران الى أن غاب القمر :

دَعْ البدر فليغرب فأنت لنا بدر اذا ما تجلى من محاسنك الفجر
إذا ماانقضى سحر الدين ببابل فطرفك لي سحر وريقك لي خمر
ولو قيل لي : قُمْ فادع أحسن من ترى لصحت بأعلى الصوت . يا بكر ! يا بكر !

ولكنّ نفراً من ماجني المدينة وأهل الخلاعة فيها احتالوا على هذا الغلام يوماً وأخرجوه الى متنزّه (المياس) في حمص وأسكروه فلما تنامى ذلك الى ديك الجنّ تفجر ألماً وشعراً يفيض بالتصوير الفني والمعنى الرائع حيث قال :

قُل لمضيم الكشح ميّاس انتقض العهد من الناس
يا طلعة الآس التي لم تعد إلاّ أذلت قُضب الآس
وثقتَ بالكاس وشُرّابها وحيف أمناك في الكاس
وحال (مياس) وما بعدها بين مغيبيك ومياس
تقطيعَ أنفاسك في إثرهم وملكهم قطّع أنفاسي
لا بأس مولاي على انها نهاية المكروه والباس
هي الليالي ولها دولة ! ووحشة من بعد إيناس !
فالهُ ودع عنك أحاديثهم سيصبح الذاكر كالنامي

وبعد أيام بعث إليه بالأبيات التالية مداعباً ومعزياً :

يا (بكر) ما فعلت بك الأقوام بل دار ما فعلت بك الأيام
في الدار بعد بقية تستامها إذ ليس فيك بقية تستام
غرم الزمان على الديار برغمهم وعليك أيضاً للزمان غرام
شغل الزمان كراك في ديوانه فتفرقت لدواتك الأقلام

ومما أنشده في ساقٍ أغيد :

ومزرٍ بالقضيب اذا تثنى ومزهاة على القمر التمام
سقاني ثم قبّلني وأومى بطرف سقمه يشفي سقامي
فبت له على الندمان أسقى مداماً في مدام في مدام !

ومن أبلغ ما قيل في صفة الأصداغ والعذار قول ديك الجن :

فقام مختلفاً كالبدر مطّلقاً والخشف ملتفتاً والغصن منقطفا
رقّت غلالة خدّيه فلو رُميا باللحظ أدماها بأن يكفا
كأن (لاماً) أديرت فوق وجنته واختطّ كاتبها من تحتها (ألفا)

ولديك الجن قصيدة في الافتخار بقبيلة (كلب) ليس لها نظير إلاّ قصيدة (ابي تمام) التي مطلعها :

لنا جوهر لو خالط الأرض أصبحت وبُطنانُها منه وظهرانها تبرُ
مقاماتنا وقف على العلم والحجا وأسردنا كول وأشيبنا حبرُ
إذا زينة الدنيا من المال أعرضتْ فأزين منها عندنا الحمد والشكر

وقصيدة ديك الجن هي :

(كلبٌ) قبيلي و(كلبٌ) خيرُ من وَلدت حواء من عَرَب عُرب ومن عجم
غلاة (موتة) والاشراك مكتهل والدين أمرد لم يينع فيحتلم
ان تعيبي لدم منا هُريق بها فقد حقنا دم الاسلام فابتسمي
أقعد وقم عالماً ان لو تطوقها بغير أحمد لم تقعد ولم تقم
أقام حصن عليهم حصن مكرمة يرتج طوداه من نُعمي ومن نقم
كم عرضوا أيدياً بيضاء مكرمة للعدم من طول ما انتاشوا من العدم
أُسد يرون الردى المُفضي بأنفسهم الى الثرى عمراً يُفضي الى الهرم

« وعلى العموم فشعر[1] ديك الجن فيما يوافق هواه جزل منسجم وصنعته اللفظية أخف على النفس من صنعة (أبي تمام) لأنها مع حسنها لا تجد للكلفة أثراً ظاهراً عليها فقد كان مقتصداً فيها ، وتشبيهاته واستعاراته حسنة سائغة » والأبيات التالية خير صورة تجلو لك ما ذهبنا اليه من حيث انسجام منظوم ديك الجن ورشاقة لفظه :

لا ومكان الصليب في النحر منك ومجرى الزنار في الخصر
والخال في الخد إذْ أشبهه وردة مسك على ثرى قبر
وحاجب مدّ خطه قلم الحسن بحبر اليها لا الحبر
وأقحوان بفيك منتظم على شبيه من رائق الخمر

(١) شعراء النصارى ص ٦٨

غرام الشاعر

— ٢ —

قلّ في الشعراء ، ثائداً وطريفاً ، من لم يحرك الحب قلبه ، واذا لم يحركه كان شعره نابياً جافياً ، ولذا فالعشاق من الشعراء كثيرون وفي الجاهلية طائفة كبيرة منهم (فعنترة وعبلة) و (المخبل السعدي والميلاء) و (حاتم الطائي وماوية) و (المرقش الأكبر واسماء) و (النمر ابن تولب وعمرة) و (صحيم بن الحسحاس وعمرة) .

وفي صدر الاسلام اشتهر وعيل لجب من العشاق الذين انتهت مصرحياتهم بالفجيعة والأسى ، وقضوا نحبهم صرعى في حلبة الهوى الفضّاح وفي طليعتهم (جميل) وحبيبته (بثينة) :

وأولُ ما قاد المودة بيننا بوادي بغيض يا بثين سباب
وقلتَ لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يا بثين جواب

وعمر بن أبي ربيعة الذي كان يشبب بكل مليحة وسيمة ... ولو لم يكن بينه وبينها مودة وهوى ... وقد تعرّض لأشهر نسوة العرب وهنّ في الطواف وفي عدادهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموي ، ولكنه لم يكن ليذكر اسمها خوفاً من وعيد أبيها ونقمة الحجاج ، فلما عادت من الحج قال فيها :

كدت يوم الرحيل أقضي حياتي ليتني متُّ قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو ف ودمعي يسيل كل مسيل
ذرفت دمعها وفاضت دموعي وكلانا يلقي بلب أصيل

و (مجنون ليلى) القائل :

أعدُّ الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعدّ الليالي

أراني اذا صليتُ يممتُ نحوها ... بوجهي وإن كان المُصلّى ورائيا
أصلي فما أدري اذا ما ذكرتها ... أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
وما بي إشراك ولكن حبها ... كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

* * *

أحب من الاسماء ما وافق اسمها ... وأشبهه أو كان منها مدانيا
وخبرتماني ان (تيماء) منزل ... لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عني قد انقضت ... فما للنوى ترمي بليلى المراميا
وماذا لهم ، لا أجزل الله قسطهم ... من الحظ ، في تصريم ليلى حباليا
فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي ... وإن شئت بعد الله أنعمت باليا !

و (كثير عزة) القائل :

ألا ليتنا يا (عز) من غير ريبة ... بعيران نرعى في الخلاء ونعزب
كلانا به عِر[1] فمن يرنا يقل ... على حسنها جرباء تعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله ... علينا فلا ننفك نُرمى ونُضرب
نكون بعيريْ ذي غنىً فيضيعنا ... فلا هو يرعانا ولا نحن نطلبُ

* * *

الفصل ربيع ، والهواء عليل ، والطبيعة ترفل بالمطارف الخضر ، والجداول الماء خرير ، والاشجار تموج بالبراعم والأزهار ، والنزهة في المساء تنفي عن النفس الهموم والأكدار .

وها هو الشاعر عبد السلام بن رغبان الملقب بـ « ديك الجن الحمصي » يسير وصحبه بعد العشي الى متنزه (المياس) في حمص ، وعلى مرج أخضر ، زاهي اللون ، ينعش القلب ، ويخلب اللب ، ويموج بالورود وشقائق النعمان جلس شاعر حمص الى صحبه ، بعد أن اطمأنت نفوسهم الى أوتار اللاعبين ، وانشاد المغنين ، و « ديك الجن » في وسطهم ينفحهم بروائعه

(١) العر هو الجرب

التي فتنت أهل العراق بعد أهل الشام ... وأضحى بها (أبو نواس) مفتوناً ... مذهولاً ... كما ألمعنا الى ذلك في موضعه .

ودارت الخمرة بين الندامى مشعشعة في أقداحها ، وامتزجت أنات الطرب بنين الأوتار وحديث السمار ، وانبعث من هذا كله صوت رخيم شق أجواء المرح والغبطة وأحدث لحناً موسيقيًّا ، عذب النقاسيم ، حلو التناغيم !

وعلى حين غرة ساد المجلس صمت لم يقطعه إلاّ همسات أفرغها شاب فارع الطول كالرمح السمهري هو بكر بن رستم في أذن صديقه ديك الجن الذي بادره على مسمع من الرفاق بقوله :

علامَ التشاؤم يا بكر ، وليس في هذا الجو الشذي إلاّ ما يبعث على البشر والتفاؤل ؟ أتنظر الى الدنيا بمنظار شديد السواد ، وتردد طيوف الغم والكآبة ، وأنت في ربيع الحياة ، تخب في بداية العقد الثالث من العمر ؟!

اشرب فديت[1] علانيه أمَّ القستر زانيه !
اشرب فديتك واسقني حتى أنام مكانيه !
ودع القستر والرياءَ فما هما من شأنيه !

استقرت هذه الكلمات العنيفة في أذن نديم خفيف الظل والروح فاندفع الى وتره ينشد هذا البيت :

ولا تبكين على ناسك ! وان مات ذو طرب فابكه !

فتعالت الأصوات من هنا وهناك مرددة بيتاً من الشعر تناول فلسفة الحياة ودلّ على ما فيها من عرض وجوهر ...

وأخذ الندامى في تحريك رؤوسهم لفرط النشوة مرددين :

رحمة العود والجنوك عليه[2] وصلاة القانون والمزمار

وكان هتاف « يا ليل ... » ينبعث من حناجرهم فابتسم ديك الجن لغبطة صحبه واشراقهم والتفت اليهم مخاطباً بقوله :

---

(١) الابيات لابي نواس (٢) الجنك آلة طرب ج (جنوك)

دانفنا الى هذا الروض المنمنم لنطرب ونشرب لكن بكراً هذا الصاحب الطيب القلب يعيش في عالم غير عالمنا ، إذ قال ينعي إليّ نفسه وهو في ريّق الشباب ، وربيع العمر ، وقد فاته إننا في فجر الحياة !

ما بالك يا بكر قد أرقت سويداءك وصفراءك على براعم أمانيك ، قبل ان تنضج وتتفتح !

فان كنت تهوى ... فلا تستصعب وصل من تهوى ... ! وان كانت أمنية صعبة المنال فلا تيأسنّ من الظفر بها .

أنظر الى النجوم في مسالكها ترها بعيدة عنا ، لكني أكاد أثب وثبة ... فأبلغها وأجني لكم قطوف الجوزاء ، وحصيد المجرة ، كل ذلك اعتداداً بهمتي واعتقاداً مني بأن « المستحيل » أسطورة خرافية لايدين بها الشباب الوثاب !

هات الكأس ياصاح واشرب ترَ السماء تحت قدميك والنجوم في قبضة يدك !

أفرغ الندامى الكؤوس ، وعزفت الأوتار ، وانطلقت الحناجر بالشدو والهتاف ، وإذ بصوت جهوري راعد يشقّ قهقهات عصبة وضعت أيديها على قلب الحياة ... وتبسمت للنور ... !

وكان مبعث ذلك الصوت القاصف أبو الطيب الذي فتح شدقيه مهدداً معنفاً بقوله :

أيها الأشقياء السكارى !

هلاّ طويتم بساط الشراب ، وحطمتم أوتاركم وأقدالحكم ، وأقلعتم عن معاقرة الصهباء والعزوف عن هذه المباذل الرخيصة والخلال المهلهلة ؟ !

* * *

هنا ارتجّ على اخوان الصفا وسادت جمعهم سحابة من السكينة ، وتمشت الرعدة في عروقهم ما عدا واحداً قال في حياء ووجل :

« مرحباً بأبي الطيب ! تفضّل أيها السيد واجبر قلوب الرفقة بمجلسة معهم ! »

هنا ... ثارت ثائرة (أبي الطيب) وماجت شياطينه ، وصاح بالندامى قائلاً :

« إذا لم تتفرقوا في الحال وتكفوا عن معاقرة الصهباء أوقعت بكم جزاء صارماً ،

وها قد أتيت بكاتب القاضي ، ليشهد بأم عينه سكركم ومباذلكم ، فاذا عدتم لمثل هذه الخبائث ، صفدكم بالأغلال ، وألقى بكم في غياهب السجون ، وفي طليعتكم ابن عمي الخليع ديك الجن ! » .

كفّ الندمان عن معاقرة الخمرة خوفاً من شرور أبي الطيب ووشايته بهم لدى القاضي فتدارك ديك الجن الأمر بقوله :

« حسبنا الليلة ما حسونا من شراب ... فلننهض الى بيوتنا بسلام ، إذ هدف ابن عمي (أبو الطيب) الى أن يذكرنا بطريقته اللطيفة ان الحياة ليست كلها طرباً ولهواً ، فله الشكر على غيرته علينا وعنايته بنا !

هيا يا بكر معي وتصبحون على خير !

قال هذا وسار مع صديقه بكر خفيفين طائرين ، متوغلين في غياض المياس حتى وصلا الى الجسر قرب الطاحون الروماني القائم على نهر العاصي ، وعلى ضفة الغدير جلسا حانقين على أبي الطيب الذي درج على تأمي خطواتهم وتعكير صفوهم .

لكن سورة الغضب ما عتمت أن خمدت في نفسيهما ، وفي سكينة الليل التي يزينها البدر وتنيرها النجوم تمايلت على الضفة الأخرى أشجار أثار شذاها المعطار في ديك الجن شعوراً غريباً وقد خيل له أن في الروض الأنيق غادة أسلمت عينيها للكرى فتضوّع منها ذلك العطر الشذيّ ، وان ما يسمعه من خرير النهر ليس خرير مائه ... إنما هو قلب غادة ينبض بدقات موسيقية سريعة لها صداها البعيد في قلبه .

وبينما كان ديك الجن في نشوة الخمور دفعه بكر بكوعه مشيراً الى الجهة المقابلة فانتبه وتململ متوجعاً ... كأن زهرة اقتلعتها يد اليقظة من روض أحلامه وأمانيه ، لكنّ أنغام الموسيقى التي أغارت على الطبيعة غبطة واشراقاً هزّت الشاعر من ذهوله فأصاخ ببداهته الى تلك الألحان الملائكية واعتقد انها ليست في الواقع من عالم الرؤى والأحلام . إنما هي منبعثة من عالم علويّ ... وانبرى يمعن النظر في شجيرات الدردار والشربين ، فلاح له من فروجها بصيص نور حسر الظلام عن أمباح متراقصة كأنها جنيّات تدور وتثب على رؤوس العقارب ، فنشط من عقاله قائلاً لبكر :

هلمّ بنا الى ذلك الروض ، فاني أخال الجنة قد تمثلت فيه ورضوان حارسها ، وحوريات النعيم هابطات من عَلٍ بقدود مائسة ، وخطى متزنة !

حثّ الشاعر وبكر الخُطى نحو جسر (طاحون خرخر) فقطعاه قفزاً ووثباً حتى عَرضَ لهما مرج كبير على ضفة العاصي فتجلت لهما نار مؤججة يتراقص لهبها ، وعلى مقربة منها حوريات خود في ثياب بيض ناعمة ... جَلَسنَ حلقة مفرغة يعزفنَ على القيثار بأصوات رخيمة هذه الأبيات :

عساك بحق عيساك مريحة قلبيَ الشاكي
فان الحُسن قد ولاّ كِ إحيائي واهلاكي !
وأولعني بصُلبانٍ ورهبانٍ ونسّاكِ
ولم آتِ الكنائس عن هوىً فيهنّ لولاكِ !

وفي وسط العذارى الغيد جَلَست حسناء لغوب تفيض قسمات وجهها اشراقاً ونوراً وترقص جوارحها على نغمات المعازف والاوتار رقصاً حرّك المشاعر وأخذ بمجامع القلوب .

* * *

نظر ديك الجن من مكانه الى الحسناء التي خفّها الطرب ، فانبرت ترقص على نغمات العود ... فمالت آمال الشاعر مع طولها الفارع وقدّها المياس وصدرها العامر وتمرّ في جلسته وراح يستجدي عطف ذلك الغزال النافر ، حتى بات يشعر بأن روحه قد فارقت جسده واستحالت الى سيّال غير منظور شقّ طريقه بين تلك القدود حتى استقرّ في أحضان تلك الفاتنة الراقصة فعانقها عناق المدنف المشتاق ! وَخمدت فورة الرقص، فنهض الغيد وألّفنَ حلقة حول الحسناء اللعوب وشرعنَ يرقصنَ رقصاً جميلاً متساوقاً . . . وتناولت الغادة التي سحر سناؤها شاعر حمص ، مزهراً وراحت تداعبه بأناملها العاجية ، فشدة بصوت رخيم بيتين من نظم ديك الجن لحنهما مُغنٍّ عراقي فاشتهر اللحن وهما :

أنتِ حديثي في النوم واليقظهْ أتعبت مما أهذي بك الحفظهْ
كم واعظ لي فيك وواعظهْ لو كنت ممن تنهاه عنك عظهْ

فسرى صوتها الرنان في عروق ديك الجن حتى بلغ شغاف قلبه ، وهنا لم يطق الشاعر

صبراً على ما فعله فيه اكسير الهوى الفضّاح فبعث بكلمات الوجد والاستحسان الى العازفات المغنيات فذعر السرب لهذه المباغتة وتراكضن على غير هدى ... سوى الحسناء صاحبة الخدر فقد سكّنت من روع العذارى ، وأخذت مصباحاً تقدمت به الى مصدر الصوت متسائلة :

من الرجل المخترق حُرمة الأدب ؟ !

وما حاجتك في سكون هذا الليل ؟ !

هنا خرج الشاعر ورفيقه من مخبئهما وراح ديك الجن ينقل نظراته في الحسناء ذات الأهداب الجانية ، سُفلاً وعلواً ، فطغت على قلبه موجة من الجوى العنيف هزّته هزّا . فتقدم من الحسناء الفاتنة محمولاً على ساقين من عجين قائلاً :

سامحينا يا أخت العرب ! فنحن غريبان ههنا وقد جفّ لعاب كل منا في حلقه فجئنا نرطب ظمأنا بشربة من موردك العذب الصافي !

ثكلتك أمك أيها الأفاك ! أجفاف ريق ... والعاصي أمامك ؟ !

هنا وجم ديك الجن ، وأسقط في يده لهذا الجواب المفحم وأخذ وجيب قلبه في دقاته ... فلحظ بكر حرج موقف رفيقه فتدارك الأمر بقوله :

لا تُسرفي العنف والملامة يا ذات الدل والخال ، فهذا الشاعر ديك الجن الحمصي وأنا رفيقه بكر بن وسيم كنا في طريقنا الى المدينة فسمعنا انشادك بيتين من منظومه فجذبتنا نارکم المشبوبة في هذا الروض الأفيح كما يجذب النور الفراشة ! أفبعد هذا من لوم وتثريب ؟ !

فانفرجت شفتا الحسناء عن ابتسامة حلوة وأجابت :

لستما إلاّ طفيليين ، ولو كان هذا ديك الجن كما تزعم لما كان يسترق الخُطى ، ويتنزوي بين أغصان الأشجار ، فيزعج ربات الخدور !

فقاطعها بكر على الفور بقوله :

والذي بعث محمداً نبيّا يا سليلة الأماجد إنه شاعر العاصي الذي فتن أهل العراق !

فردّت الحسناء عليه بقولها :

إذا كان هو كما تزعم فليأت بالشاهد مرتجلاً بيتين من منظومه دليلاً على صحة دعواه !

وما كادت ورد تقفل هذا وتلقي معجزة على عاتق ديك الجن ورفيقه حتى وثب الغيد من مجلسهنّ فابتسم الشاعر ونظر الى أعماق عيني العذراء فهاله ما قرأ فيهما من سور وأسرار فمسح العرق عن جبينه المتحلب وأنشد مرتجلاً :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت الوسن
كي أستريح وتنطفي نارٌ تؤجج في البدن
دنف تقلبه الأكف على فراش من شجن
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من ثمن ؟!

فتوردّ خدا الغادة الحسناء وقالت :

أحسنت يا هذا ولكن ما الدليل على أن الأبيات من صميمك ؟

فأجابها ديك الجن قائلاً :

في مقدوري أن أرتجل سواها ... وسواها ... لكني أخشى أن تنسى كل ما أهتف به في هذه المناسبة السانحة لسواي من الشعراء ، كما جردتني من الأبيات التي أنشدتكيها ، بيد أني سأغير الساعة كافيتها عندها تؤمنين بأني شاعر حمص القارع الصيت والصوت « ديك الجن » !

— هات لنرى !

فأنشدها ديك الجن بصوت متهدج خالطه الجوى اللاعج :

قولي لطيفكِ ينثني عن مضجعي وقت المنام
كي أستريح وتنطفي نار تؤجج في العظام
دنفٌ تقلّبه الأكف على فراش من سقام
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من دوام ؟

فسُرّت الحسناء وقالت :

أحسنتَ يا هذا ، ولكن تغيير القافية مرة واحدة لمن أيسر الأمور فهل لك أن تغيرها مرة أخرى لأومن بأنك شاعر حمص والعاصي ؟!

— حبًّا وكرامة ما دمت قد منحتني لقب (شاعر حمص والعاصي) :

قولي لطيفك يثنني عن مضجعي وقت الرقاد
كي استريح وتنطفي نار تؤجج في الفؤاد
دنف تقلبه الأكف على فراش من قتاد
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من معاد ؟ !

لم يقف ديك الجن عند هذا الحدّ من التلاعب بالقافية بل أنشدها الأبيات على شكل رابع قائلاً :

قولي لطيفك يثنني عن مضجعي وقت الهجوع
كي أستريح وتنطفي نار تؤجج في الضلوع
دَنِفٌ تقلّبُه الأكف على فراش من دموع
أما أنا فكما علمتِ فهل لوصلك من رجوع؟!

استخفّ الطرب غادة حمص بعد هذا الارتجال الموفق والتلاعب بالألفاظ ، فهتفت بالشاعر مستحسنة ... ومقرعةً ... بقولها :

يا طويل العمر !

آمنت الساعة بأنك شاعر حمص والعاصي ... وآمنت بأنك ديك الجن ... لكنّ هذا لا يبرّر تلصصك على الحرائر وترويعهنّ وهنّ في مسارح الطرب !

لكن ديك الجن لم يبالِ بهذا التقريع ولم يتوانَ عن الرد عليها بقوله :

إن رجليّ قادتاني عفواً الى هذا الروض ، وقد حملني على الوقوف في مكان فضيّ من مسارحكنّ انشادك بيتيّ :

أنت حديثي في النوم واليقظه أتعبت مما أهذي بك الحفظه
كم واعظ لي فيك وواعظه لو كنت ممن تنهاه عنك عظه

— اسمع أيها الشاعر !

ان هذا الروض وما حوله مع الدير الصغير المقابل ، وتلك القرية المتناثرة المساكن واسمها « الدوير » حمى لنا نحن النصارى ، لا يتخطى تخومه أحد إكراماً لمشاعرنا الدينية فهو منزل بلا سور ، وخدر لا تحرسه الاّ الحشمة والوقار وقد جرت العادة أن تخرج إليه

عذارى النصارى في بدء الربيع يوم الاثنين أول الصوم الكبير الذي ندعوه (اثنين الراهب) فنقضي في هذا الجوّ الشذيّ الفوح ، المعطر الأرج ، نهاراً وليلة عازفات لكنك ورفيقك بكراً أفسدتما علينا الليلة المتعة والسمر ، ولو لم تكن فرسان الشعر لأطلقتها صرخة يخفّ لها كل بطل عملاق من بهاليل الحيّ ، فيصيبكما من الأذى ما ليس في الحسبان فاذهبا بسلام ، وحاذرا أن تعودا لمثلها بعد !

— ومن يتّسع عينيه بإشراقة وجهك يا شقيقة البدر ولا يضلّ سبيله ؟!!

هاكما السبيل واضحاً أمامكما حتى تبلغا (الدوير) ومنه تسيران على ضوء القمر الى أن تصلا مقام خالد بن الوليد ، فلن تضلاّ بعده السبيل !

بارك الله فيك وعليك يا أخت المروءات ، ولكن كوني صريحة معي وقولي بلا تلعثم أو جمجمة :

أيُتاح لي أن أخترق حرمة هذا الحمى اذا ما اعتنقت النصرانية ؟

استعنت بالله عليك أيها الشاعر الماجن !

« ان الذي استعنت به عليّ جميل[1] ويحب الجمال ولقد قال نبينا (ص) :

« الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ! » وأرى روحك تحوم حول روحي حتى تكاد تمازجها ، وهما مؤتلفتان رغم تفاوت الأديان ، وقد قيل كذلك « المرء على دين خليله ! »

ثم التفت الى رفيقه بكر بن رستم وقد طفح وجهه بشراً وقال على مسمع من ورد :

احفظ عني أيها الصاحب هذه الأبيات التي أوحت بها مناسبة الليلة :

لما نظرت إليّ عن حدق المها ... وبسمتر عن متفتح النوّار

وعقدت بين قضيب بان أهيف ... وكثيب دعص عقدة الزنار

عفّرت خدي في الثرى لك خاضعاً ... وعزمت فيك على دخول النار !

أنشد هذا وانطلق مع رفيقه الى قلب المدينة مودعين الغانية ، ذات الأهداب الجانية ، بعد أن سألها ديك الجن قائلاً :

---

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ٢١٦

هل لك يا ذات البهاء أن تنعمي عليّ بمعرفة اسمك كيما استنزل الوحي في خلواتي !

أخذ مرب الغواني في الضحك لجرأة الشاعر وقحته لكنّ الغادة أطرقت مليًّا ... وقد تورّد خدّاها وقالت بصوت يقرب من الهمس :

إسمي ورد بنت الناعمة !

ما أعذب هذا الاسم وأطيب الورد الشذي الفوح وإنني منذ الساعة أصبحت أدعى « عبد ورد » وليس عبد السلام » !

دَلَف ديك الجن إلى فراشه محاولاً اغفاءة تسري عنه هموم ليلة قضاها دنفاً تقلبه الأكف على فراش من قتاد ... !

لكنه حاول المستحيل فطفق يردد من فراشه اسم ورد وطيف ذكراها ماثل له :

أحب ديك الجن ورداً حبًّا ملكَ عليه شغاف قلبه وكلما ذكر إنها (عيسوية) وإنه (محمدي) وتخيل ان الشرائع التي اصطلح عليها الناس ستحول دون تحقيق رغبته وتقف سدًّا منيعاً في وصوله اليها ترتجف جوارحه وتنقضّ عليه زحوف الحزن واللوعة ويطلق لعينيه عنان البكاء ، مُردداً مع الشاعر :

وأمرٌّ ما لاقيت من ظلم الهوى قُرب الحبيب وما اليه وصولُ !

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول !

انبلج الصباح ولم يغمض للشاعر جفن بل أمضى ليله الطويل يسامر النجوم ، ويسائل الفلك الدوّار ، عما إذا كانت الأقدار ، ستجمع بينه وبين ورد فيقرّ بها عيناً ، ويمتّع طرفه بآيات الله وروائع حسنه !

وقبل ان ترسل ذكاء اشعاعها على البسيطة تزمل ديك الجن بعباءة وبرية وخرج هائماً على وجهه إلى أن أفضى به المطاف إلى ضفاف العاصي قريباً من (عُشّ) الغواني الذي كان ليلة البارحة مسرحاً للصبابات ... ومجلىً للغيد الرعابيب ... فسار حذراً إلى قلب الروض وهو يحسبه عامراً كالأمس بتلك القدود الميّاسة ، والأهداب الجانية فألفاه :

كأن لم يكن بهز الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر !

—•—

فانزوى الشاعر في ركن قصيّ يستروح عذى ليلة كانت موارة بالمزاهر والمغاني ، مترعه بالدنوف والاغاني .

وعاودته أصوات رخيمة كانت تهتف :

عساك بحق عيساك مريحة قلبي الشاكي
فان الحُسن قد ولاّ كِ إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبانٍ ورُهبان ونسّاك
ولم آتِ الكنائس عن هوًى فيهنّ لولاكِ

وبعد استراحة هجعت فيها نفسه المضطربة القلقة ، هبّ من مكمنه مذعوراً على صوت غيد سائرات في ناحية من الروض يظللهـا الورد والنسرين وتسمع قهقهـات الحسان وأرهف السمع الى قول احداهن :

« اضحكنَ يا صبايا على ورد[1] فانها لم تنم ليلة البارحة !

— لعلها عاشقة !

— ألم تري يا (مي) إنها بعد انصراف الشابين عنها لم ترقص البارحة ولم تغن !

— ليس العشق اثماً ولا عاراً ، لاسيما ان الشاعر ورفيقه من أجل شبان حمص وأطيبهما محتدًا لكنهما ... مسلمان...

— كفا كنّ هزاراً يابنات الحيّ وهلمّ بنا الى النهر لنبترد قبل أن يشغل الرجال مياه العاصي

• • •

سارت الفتيات الى بركة يظللها الشربين والعليق ، وتسلل ديك الجن من مخبئه الى ملجأ أمين يرى الفتيات ولا يرينه وهو غير مصدق ان ورداً هي ... هي ... بقامتهـا الفارعة وقد نَضَتْ عن جسمها البض الناعم ثيابها وغاصت في المـاء البلوري ، فحدق ديك الجن ببصره من عَلٍ فرأى محبوبته تعوم وقـد طَفَت ذوائبها على وجه المـاء فعقدت حول رأسها اكليلاً ذهبيًا ، واجتلى محاسنها عن بعد وتكشفت له جنة الخلد بحورها وآرائها ..

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١١٩

وحلقت روحه فوق الغدير ... حتى بلغت مرتع المستحمّات واستقرت في نفس ورد وامتزجت بروحها .

وكانت الزنابق الشذية ! تعوم سابحة في الماء الضحضاح ، حذرات من التوغل في النهر الغزير الماء لجهلهنّ فن السباحة لكن ورداً استرجلت ونمت على صويحباتها هذا الجبن وتوغلت في اليم حتى صرعتها موجة عنيفة عارمة أفقدتها الوعي ، فأخذت في الصراخ والنجدة . . . ولكن أنى للغيد الحسان أن يبلغنها وينقذنها وهنّ يجهلن السباحة ، فتفجر الشاعر من مكمنه ... خفيفاً طائراً وهو يقول :

« توكلت على الله ! فالميدان عجاج ... وأنا أركب فرسها ! » عالماً منه بأن (ورداً) هي كبش التضحية وانطلق كالسهم يغالب الموج حتى أمسك بجسد كاد يفلت من يده وخرج به طافياً ، وألقى به على مرج معشوشب ، ومرعان ما دثره بعباءة وما هي إلاّ هنيهة حتى سجد ديك الجن أمام جسد هامد وتلا صلاة حارة من قلب ينطوي على الحب والولاء ، وانبعث من صدره نداء شقّ طريقه الى السماء التي قبلت صلاته ولبت نداءه فسرى الدفء في الجسم المقرور ، وأخذ القلب يستعيد دقاته وأخذت ورد تصحو قليلاً ... قليلاً ... ففتحت عينيها بعد هجمة استغرقت ساعة ورأت المتيم الولهان يبكي فوقها فتململت كمن يتنزى في قيود وأغلال ... وأجالت بطرفها فيما حولها فلمعت في خاطرها مصارعتها الأمواج وأيقنت أن الشاعر قد طوح بنفسه في اليم وأنقذها من لجج الموت ، فتطلعت اليه بطرف يرف بالشكر والامتنان ، غير مكترثة بما تتهامس به شفاه الغيد اللائي جمد الدم في عروقهنّ لهذا الطارىء الذي لم يكن في الحسبان ، وضغطت على يد ديك الجن بيدها دلالة على الاعتراف بالجميل ، وفي مياه العاصي تعانق الاسلام والنصرانية في شخصين محبين هزآ بالتقاليد وضربا بقيودها الأجيال عرض الأفق كما تعانقت سيوف وائل وتغلب في (مؤتة) و(اليرموك) و (القادسية) !

فياليت كلّ اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان !

كان هذا الحدث الغريب ، القريب من الأساطير ، حديث المجالس في حمص وبلاد الشام قاطبة وما أن أطل فجر يوم الزفاف بوروده ورياحينه حتى اشترك أحفاد تغلب ووائل في

مهرجان ضم كل ظبي غرير ، ودل على أن العرب عرب قبل عيسى ومحمد !

أخذ ديك الجن بيد حسنائه الى عشهما الوادع وأنشد والحشد يتبعهما الأبيات التالية التي تناشدها الناس وخلدت ورداً وهي :

انظر الى شمس القصور وبدرها ... والى خزاماها وبهجة زهرها

لم تبك عينك أبيضاً في أسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها

وردية الوجنات يختبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرها

تسقيك كأس مدامة من كفها ... مقرونة بمدامة من ثغرها

انتقام الشاعر

— ٣ —

ظلّ الحبيبان عاماً كاملاً يتسافيان كؤوس الحب ، ويجنيان براعم الهوى ، مرددين مع الشاعر العربي :

وكل نعيم في الحياة وغبطة على شفتينا حين تلتقيان !

ولبث ديك الجن يشعر بأنه أسعد من مليك يزين مفرقه التاج ، ويقبض على صولجان الحكم والسلطان .

وإذا حبا الله ورداً بالجمال والجلال ... فأي تاج أعز من تاج ديك الجن ، يزين مفرقها ويُفضي بها الى أريكة السعادة والهناء .

« غفل ديك الجن عن الدنيا بأسرها [1] ولم يعد يهتم بأحد سوى زوجته الحبيبة ، وكأني به قد نسي أن في الكون سواها من الناس فلم يشغله عنها لهو ولا عمل ... ولم يحفل بالأيام والسنين ولا بمظاهر الطبيعة من ربيع وخريف أو شروق وغروب ، ولماذا ينبغي أن يحفل ؟ أليست ابتسامة ورد شروق الصباح ؟ واغفاؤها هبوط الظلمة ؟ أليس الربيع مزدهراً في محاسن وجهها ؟ والشقاء أما هو اعراضها ؟

وكان بكر يزور الشاعر وفريقته بين حين وآخر ، مغتبطاً بالسعادة التي تظللها ومتمنياً لها دوام الهناء ، وطالما كان يردد وصديقه ذكرى ليلة قادها فيها القدر الى عُش الغواني في (الدوير) تلك الليلة التي هجم فيها أبو الطيب على اخوان الصفا فعكر صفوهم ، وفرّق شملهم !

وكأن السعادة التي غمر بها القدر ديك الجن أنسته أذى ابن عمه أبي الطيب ولجاجته فكان اذا ذكره بكر أمامه بكلمة جارحة قال :

---

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١٢٤

لا أذم من كان الباعث على اكتشاف بدر أضاء سماء حياتي . . . ولو لم يباغت أبو الطيب في تلك الليلة شملنا ويعكّر صفونا ويفرقنا أيدي سبا لما ظفرت بهذا النعيم وهدأة البال !

أما أبو الطيب وهو ابن عم الشاعر فكانت عقارب البغضاء جاثمة على صدره رغم تودده لديك الجن بالمردة والولاء ، وتظاهره بتناسي الماضي وصفاء الطوية وهو الذي نال من الشاعر أفظع هجو فبعثه قلب يتمزّى حفيظة وثأراً !

ها هو ديك الجن وعروس أحلامه ينعمان برخاء عميم وسعادة وارفة الظل ، وكانت ورد أشبه شيء بالجواهر : دائمة الاشعاع ، وبالوردة النضرة تكسف بجمالها الفاتن وعبيرها الشذيّ سائر الورود !

وكان ديك الجن يعبدها عبادة أشبه بعبادة النسّاك . . . غير أن هذا النعيم الذي رفل ديك الجن وورد في مطارفه قد حزّ في نفس أبي الطيب وهو صاحب الثارات من شاعر حمص الذي خلد اسمه في البسيط العربي بقصائد طافحة بالهجو اللاذع والقول المقذع ، فكانت تلك الصور الشعرية التي خلّفها ديك الجن في أعلاق الأدب العربي سُبة وعاراً . . . حتى أصبح غلمان الشوارع يهتفون بذلك القصيد . . كلما لمحوا أبا الطيب في شوارع حمص وأحيائها !

إذن : لابدّ من الانتقام من المحبين والايقاع بينهما مهما كانت النتائج !

واذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقمْ عليهم مأتماً وعويلا !

* * *

أطلّ يوم احتاج فيه ديك الجن الى شيء من الدراهم عوناً لبعض اخوانه على عوادي الأيام وصروفها فاقترض مبلغاً من ابن عمه أبي الطيب وبعد لأي من الأشهر دَلف أبو الطيب الموتور الى دار الشاعر مطالباً بالدراهم ومهدداً برفع الأمر الى القاضي

وبالرغم من أن شاعر حمص ورث عن والده ثروة كان محسوداً عليها . . . وأصاب من الأميرين الهاشميين أحمد وجعفر ولديْ علي ، رفداً جزيلاً ، باعتبار أنه شاعر من شعراء آل هاشم ، يذب عن حياضهم ، ويدعو الناس الى بيعتهم ومناصرتهم ! لبث على ما كان عليه من الاعسار . . . حتى أعسر واختلت موازينه ، وعندما جاءه أبو الطيب مطالباً

برد المـال ... استمهله أياماً ريثما يعود من سـفرته الى سلمية قاصـداً أميرها الهاشمي أحمد بن علي ، فلم يُلاق من (أبي الطيب) سوى الامعان في الطلب ، والاصرار على وفاء الدين !

أقارب كالعقارب في أذاها فلا تركن الى عمٍّ وخال !

في أمسية ذلك اليوم جلس ديك الجن مفكراً في وسيلة يدفع بها هذا الازعاج المتواصل ويستمهل ابن عمه ، فلم يجد بدًّا من زيارته في داره والتوسل إليه بالتريث والامهال !

فقابل أبو الطيب مطالب الشاعر بالاصرار على وفاء الدين وإلاّ سيرفع الامر الى أولي الشأن فيلقى ديك الجن نصيبه من المقارع والسياط !

* * *

خرج ديك الجن يجر أذيال الفشل ودخل على ورد والحزن يحزّ في نياط قلبه وبعد أن كاشفها بالامر ودّعها بقوله :

ودعتها لفراق فاشتكت كبدي وشبكت يدها من لوعة بيدي
وحاذرت أعين الواشين وانصرفت تمض من غيظها العنـاب بالبرد
فكان أول عهد العين يوم نأت بالدمع آخر عهد القلب بالجلد

وأوصى بها صديقه بكراً خيراً وعناية ريثما يؤوب من سفرته الى سلمية معللا النفس بالتقاء القريب :

ما بين طرفة عين وانتباهتها يُغيّر الله من حال الى حال !

ودّع الشاعر مدينة حمص وفيها أغلى أمانيـه وأشهاها وبكر سائر في وداعه ، وأمام خان معروف ، بين حمص وسلمية ، عانق (بكر) أخاه الصفيّ الوفيّ ديك الجن وقال له : « ان قلبي ليحدثني يا شقيق الروح بأننا لن نلتقي بعد اليوم ، فأنا ما زلت أشعر منـذ ليلتنا في الميماس ، والغيد سادرات في لهوهنّ ومرحهنّ بأن يد القضاء قد أخذت تشد خيوط حياتي شدًّا عنيفاً ، وأحس بالهواجس السود تجثم على صدري وتضغط عليـه وكم أود لو أفلت منها لـكن هيهات ان يغني حذر عن قدر » !

وديع ديك الجن لهذه المفاجأة المرتجلة ... وهدأ من روع صديقه بقوله :

« لا تكن فريسة السوداء [1] يا صاح !

فما بك من سوء سوى لوعة الفراق ، ولقد أذكرتني بما جاء في أحد الكتب السماوية بلسان الله عزّ وجل إذ قال :

« إن مما عاقبت به عبادي اني ابتليتهم بفراق الاحبة ! »

وأراني منذ الآن شاعراً بوطأة هذا العقاب الصارم ، فبعيشك يا صاح لا تتخلّ عن ورد بل فرّج همّها في غيابي لئلاّ تسمي فريسة الأحزان !

بكى الصديقان ، وودع كل منهما الآخر وهو شاعر بأنه يودع قطعة من نفسه وسار ديك الجن في أثر القافلة التي سبقته متوغلة في البرية وعاد بكر الى منزل صديقه ليسلي ورداً ويؤاسيها على فراق زوجها . وقلبها منخن بجراحات عميقة لفرقة بعلها ، لامعة لمعان السيوف المشرعة في حلبة الطعن والكفاح !

ما كان همّ أبي الطيب استرداد المال الذي له في ذمة ابن عمه . . . وما كانت المروءة حافزة عند اقراضه المبلغ ، إنما فعل ذلك بوحي من نزغات ابليس ليزعزع أركان سعادة نشرت ألويتها فوق منزل ديك الجن !

أما وقد أفلح في البداية فأبعد خصمه الأول ديك الجن الى (صلمية) فلا بد له في النهاية من قضاء مأربه وهتاء غليله الملهوب ، بالانتقام لكرامة ثلمها ديك الجن في قصائد .. فني النشب ... والمتاع ... ودارت الأيام دوراتها حول الشمس ... فلم تفنَ تلك القصائد المقذعة ، بل ها هي صورها حيّة خالدة في أمهات كتب الأدب العربي الصغر ...

لقد أزفت ساعة الانتقام فليرسل على الشاعر ومحبوبته شواظ غضبه ، وليسقهما زقوماً وغسلينا !

أخذ أبو الطيب في التردد أولاً على دار ابن عمه متظاهراً لورد بأنه يريد خدمتها وقضاء حاجاتها في غياب بعلها ... غير أن ورداً كانت أبرع من أن تؤخذ بحبائل هذا الثعلب الماكر ، ولكم قرأت في عينيه الشر والوقيعة بها . . . فأعرضت عن رؤيته ، وكلما طرق بابها تحجّلت شتّى المعاذير مؤثرة ألاّ ترى وجهه ... فاحفظ

---

(١) المجموعة القلمية ص ١٢٦

ذلك أبا الطيب وزاد في سخائم قلبه لاسيما وقد أثار جمالها في نفسه الخسيسة شهوات بهيمية فوطد العزم على بلوغ مأربه مهما كان الثمن !

ترصد أبو الطيب ورداً صباح يوم وهي وحيدة في مقصورتها فولج الخدر والابتسامة تشيع في شفتيه ، متظاهراً بالاستفسار عن ديك الجن وأنباء رحلته ، وما لبث ان جنح الى مكاشفتها بغرامه وتهيامه بها ... ونثر على سريرها الذهب الوهّاج ، فردّته ورد على أعقابه بألفاظ الزجر والتأنيب وطردته من خدرها شر طردة ، فاستشاط غضباً وتميز غيظاً ، وانقضّ عليها كوحش ضار « فدافعت عن نفسها [1] دفاع اليأس حتى نقدت قواها وأوشكت ان تسقط مغشيًّا عليها فقيّض الله لها في تلك الساعة بكراً الصديق الأمين حاملاً رسالة من ديك الجن يذكر فيها تمديد اقامته في سلمية بالحاح من الأمير الهاشمي فلما سمع أبو الطيب خطوات قادمة نحوه ذعر وفرّ من النافذة وهو يلعن ويتوعد ... » دخل بكر المقصورة على ورد فألفاها في شبه غيبوبة وقد عزا ذلك الى حزنها على فراق ديك الجن فحنا عليها حتى زايلها ما ألمّ بها دون أن يبدو على الحسناء الرزينة أثر مما بدر من أبي الطيب ذلك الصباح وبعد ان تلا عليها رسالة بعلها توسلت اليه إن يسطّر اليه كتاباً عاجلاً يستحثه فيه على الإياب السريع .

بعد ان أخفق أبو الطيب في مسعاه ومباذله اعتكف في داره وأصاخ الى تأنيب ضميره لفعلته المزرية الشائنة ، فراح يفكر في حيلة تنجيه من الفضيحة قبل ان تتناهى الى ديك الجن تفاصيلها ...

وبعد امعان الفكرة وتقليبها على أوجه شتى ، عوّل على الكتابة لابن عمه الشاعر يستحثه على العودة سراعاً إذ فاحت خيانة ورد فهي تحب بكراً وتهواه وهذا ما تهامس به الشفاه في طول المدينة وعرضها !

والعرض عند العربي قدس أقداسه ، فمن عبث بحرمته ، وعاث بمحرابه فجزاؤه صمصام بتّار ، يزيل الأذى ، ويمسح العار عن الشرف الرفيع !

طوى أبو الطيب الرسالة ودفع بها الى نجّاب خاص حملها الى ديك الجن في السلمية

(١) المجموعة النقلية ص١٢٧

وأوصاه بملازمة الشاعر والعودة معه الى حمص حتى إذا أزف يوم الرحيل واقترب ديك الجن من المدينة سبقه الرسول على راحلته خبباً وذكر لأبي الطيب كل ما يهمه الوقوف عليه .

فضّ ديك الجن الرسالة وقرأ فحواها فكتب الى أحمد بن علي الهاشمي شعراً يستأذنه في الرجوع الى حمص ويعلمه بما بلغه من خبر زوجه في قصيدة مطلعها :

ان ريب الزمان طال انتكاثه كم رمتني بحادث أحداثه !

ويقول فيها :

ظبي أنس قلبي مقيل ضحاه وفؤادي بريره وكباثه

الى أن يقول :

خيفة أن يخون عهدي وأن يضحى لغيره حجوله ورعاثه

وتخلص من هذا الى مدح أحمد بن علي وهي طويلة ، فأذن له بالعودة الى حمص ولم يمض أسبوع حتى عاد الرسول الى أبي الطيب في عصر يوم الى المدينة وذكر له أن ديك الجن على قيد ذراع من حمص فهبّ أبو الطيب لملاقاته ونصب الشرك الذي أوحت إليه به نفسه الخسيسة ، وقبل أن يبارح الدار الى مشارف المدينة لملاقاة ابن عمه لقّن أبو الطيب غلامه كلاماً يقوله وأرسل يدعو بكراً على عجل فجاءه هذا مسرعاً ورأى أبا الطيب يبكي ويعول فسأل عن جلية الواقع فقصّ عليه غلام أبي الطيب ما لقّنه سيده من كلمات الزور والتضليل قائلاً :

كنت قادماً في ركاب سيدي ديك الجن من سلمية الى حمص وعلى مقربة من المدينة اعترض سبيلنا رهط من اللصوص فرجوت شاعر حمص والعاصي أن يطلق ساقيه للريح ولكنه أبى الهرب وصمد لقتالهم مع رجال القافلة فغلبناهم ، غير أن ديك الجن أمعن في مطاردة اللصوص والتنكيل بهم فتصدّى له أثيم وفوّق الى صدره رصاصة أردته قتيلاً . فتركت الجثة مع القافلة وسبقت القوم لأخبركم بالواقع وأخالهم قادمين بالجثة بعد فترة .

روى الغلام هذه القصة المفتعلة ولحق بسيده أبي الطيب خفيفاً طائراً ولبث بكر مسمراً في موضعه وهو يقلّب الرواية على أوجه شتى بين مصدق ومكذب واستغرق

في تفكيره هذا فترة وراح يتأمل في الكلمات التي ودّع بها صاحبه ديك الجن صباح سفره الى سلمية ولعلّ القارىء يذكرها وهي :

« إن قلبي يحدثني يا صاحبي إننا لن نلتقي ، وانني ما زلتُ أشعر منذ ليلتنا في الملعب والغيد سادرات في اللهو والمرح ، بأن يد القضاء أخذت تشد خيوط حياتي شدًّا عنيفاً .. وأحس بالهواجس السود تجثم على صدري ، وتضغط عليه ، وكم أود لو أفلت منها لكن هيهات أن يغني حذر عن قدر ! »

لمعت صورة هذه الكلمات في خاطر بكر فمال الى تصديق الخبر وأجهش في البكاء على سيد شعراء حمص وزين بهاليلها ، متمنياً لو كان رفيقه في سفرته كيما يدفع عنه العدوان ويفتديه بمهجته .

وكأن الفجيعة بديك الجن نكأت في قلب بكر ندوباً وجراحات ، فانهال على أبي الطيب لوماً وتقريعاً ، إذ كانت مضايقته شاعر حمص والعاصي الباعث على سفره الى سلمية استنداءً لكف أميرها الهاشمي في سبيل وفاء دين أبي الطيب ولكن اليمين كان حليفه .

سمع أبو الطيب هذا التثريب العنيف والتقريع الصارم ، فاستخرط في البكاء والعويل ليوم بكراً بموت رفيق صباه ويضاعف في قناعته بموت ديك الجن والتفت إليه قائلاً :

لم يكن الالحاح في طلب المال كرهي لعبد السلام ابن عمي — رحمات الله عليه — فهو أخي وحبيبي وريحانة قلبي ، لكني أحببت ألاّ يطيل غيابه عن الأمراء الهاشميين في سلمية لجاذبهم حبل المودة والولاء فأسرفتُ في طلب الدين وضيقتُ الخناق عليه حتى مضى إليهم وأمضى في رحابهم ردحاً من الزمن رافلاً في مطارف كرمهم ، ولو كنت أعلم أن الأمر سيُفضي الى الفجيعة به لسامحته بالمال وفديته بنفسي :

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير !

ولكنّ الرزية فقد حُرٍّ يموت لموته خلق كثير !

هلمّ بنا يا بكر نستقبل جثمانه ، فقد شارف الركب الوصول ولنعرج به على منزله ايراه المحبون وذوو القربى ، قبل أن يوسد الثرى !

لك الله يا ورد من بائسة مسكينة !

ماذا سيحل بك عندما ترين الحبيب الذي طالما تمنت من أجله الأهل والدين ... وخرجت على العُرف والعادة ... ودست في سبيله التقاليد ، جثة هامدة لاحراك فيها بعد ان كان صاحبها بلبلاً شادياً يرقص على كل روح ، ويغرّد على كل فنن !

استحلفك يا بكر بأعز الناس لديك ، بأمك وأبيك ، وأرجو ان تذهب من توّك الى ورد وتصارحها بالخطب الجلل ، وتعدها لاستقبال الجثمان لئلاّ تنقضّ عليها الأحزان دفعة واحدة فتقتلها !

اذهب بربك اليها ودعني أذهب لاستقبال الجثة وحدي !

آه يا ديك الجن :

ما دام غير الله من دام فاغضب على الأقدار أو سلّم !

مَسحَ بكر دموعه وهرولَ الى ورد متناسياً مصاباً تَصم ظهره ، وفجيعة هزّت أركانه هزّاً ، لكنه تحامل على جرحه وصارح ورداً بخطب جلل أفقدها قريناً شريفاً ، وشهماً غطريفاً ، وحبيباً رئيفاً ، فوقعت المسكينة مغشيًّا عليها لهول المصاب الذي أودى بأملها الباسم !

أما أبو الطيب فقد خلا الى شياطينه ، وأغرب في الضحك بعد خروج بكر الى ورد لنجاح مؤامرته ، وبلوغ غايته ، وها هي الفرائس سائرة عفواً الى الشرك الذي نصبه لها الغادر الحقود ، وها قد أزفت الساعة التي ينتقم فيها أبو الطيب من شاعر سوّد صحائفه بالهجو المقذع ، فأكسبه الذل والعار ، وبثأر من حسناء صانت عرضها عنه ولم تترخص به ، ومن صديق ما كان ذنبه إلاّ الوفاء لديك الجن غائباً حاضراً ... !

خرج أبو الطيب من منزله وهو يشعر بنشوة الظفر وشهوة الانتقام وسار حتى بلغ باب تدمر فجلس خارج المدينة على الطريق منتظراً قدوم القافلة وإذ به يلمح غباراً متصاعداً ويسمع وقع حوافر الخيل ، فاستعدّ لمقابلة ابن عمه ولما تبيّنه بين القوم هرع اليه متظاهراً بالشوق واللهفة ، وعانقه ولطّف من حدته وقد لمح عليه آثار الاعياء والاضطراب بعد ان كان مرحاً ذا فيثارة متواصلة الانشاد والتناغيم ، وكيف لا يكون فريسة الألم الدفين ورسالة

أبي الطيب اليه تشير إلى خيانة ورد وغرامها بصديقه بكر ؟ !

سار الشاعر وأبو الطيب منفردين عن القافلة ، فشرع هذا يقصّ على ديك الجن غرام بكر بورد واستمتاعه بتلك الزهرة النضرة فأصبحت قصتهما أشهر من قفا نبك . . .

روى أبو الطيب كل ذلك باختصار وأردف اليه قوله :

« لقد بثثت العيون والارصاد على الحبيبين عند ما علمت بقدومك ، وقد أبلغني من لا أشك في صدق روايته إنهما الآن في خلوة تامة . . . بعيدين عن كل رقيب وإذا ما سرت حثيثاً إلى منزلك رأيت عُش الهوى الفضّاح قد لفّهما وشاهدت بعينك الحد الذي بلغته أمانة الزوجة وحرصها على عرضك . . . !

أثارت هذه الكلمات عن نفس ديك الجن زوبعة من الحفيظة والنقمة ، وضعضعت توازنه ، فسار وابن عمه على عجل حتى وصلا المنزل فولجاه بخطوات وئيدة الى أن بلغا مقصورة ورد فلمحا فيها نوراً وأشار أبو الطيب الى ديك الجن ان يتريث قليلاً حتى بلغ الباب قفزاً على رؤوس أصابعه ولمح من فروجه بكراً ما كفاً على ورد وهي مغمى عليها لهول المصاب الفادح ، فطوراً يمسك بيدها ويهزّها لعلها تستفيق ، وآخر يبلل وجهها بالماء البارد علّها تصحو من غيبوبتها . لكن الضربة قاصمة والرزء جلل . فعمد بكر ، بعد أن فشلت طرق اسعافه الى وضعها على سريرها وشرع في دلك جبينها وذراعيها كيما يعود اليها وعيها !

وفي تلك اللحظة أدرك ابو الطيب ان القدر ساعده بأكثر مما توقع ... على تنفيذ أحبولته فأشار على ديك الجن بالدنو من خصاص الباب مشيراً بسبابته الى الفريسة .

نظر ديك الجن الى الداخل وعيناه تقدحان شرراً ، ومعاطسه تنفث شروراً ، وحانت من بكر التفاتة الى الباب فلمح ديك الجن (الميت — الحيّ) فجمد الدم في عروقه وانتصب شعر رأسه ، وشاعت الرعدة في جسمه ، ظنّا منه انه يشاهد طيف صديقه الذي راح فريسة للجناة واللصوص ، فرفع يده عن جبين ورد مذعوراً مما يرى ... وقد عقد الخوف لسانه ... حتى لم يعد يقوى على مكاشفة ورد بوجود بعلها حيّا واقفاً بالوصيد . .

هنا ! لم يبق للريب موضع . وللصبر منزع في نفس الشاعر وقوسه . بعد أن شاهد

وردآ مستلقية على سريرها ويدى بكر تهوّمان على جبينها وصدرها العاصر مكشوف عار لعيني بكر وهو الذي كان مناط أمله ومستودع سره ، وحبة سريرته ، يخون اليوم صاحبه في أعز أمانيه، ويمعن في زوجه عبثاً ولهواً ! أفبعد هذه الصور المتدافعة المتراقصة يتريث ديك الجن في امتشاق السيف غسلاً للفضيحة ودفعاً للعار ! ؟

لم يكن إلاّ لحظة حتى اخترط الشاعر سيفه وأهوى به على ورد وبكر وهو يقول :

« هذا جزاء من ينكث العهد وينقض غزل الوفاء ! فالى جهنم وبئس المصير ! »

ليتني لم أكن لعطفك نلتُ ... والى ذلك الوصال وصلتُ !
فالذي مني اشتملت عليه ... بالعار ما قد عليه اشتملتُ
قال ذو الجهل قد حلمت ولا أعلم اني حلمت حتى جهلتُ
لام لي بجهله ولماذا ... أنا وحدي أحببت ثم قتلتُ
سوف آسي طول الحياة وأبكيك على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

وما هي إلاّ لحظة حتى أخذ ينشد زوجه وهي مسجاة على فراش الموت قوله :

لك نفس مؤاتيه ... والمنايا معاديه
أيها القلبُ لا تعد ... لهوى البيض ثانيه
ليس برق يكون أخلبَ من برق فانيه !

وتفجّر الشاعر دمعاً ورثاء لفتاة أحلامه فطفق ينشدها وهي جثة هامدة أبياتاً متنوعة القافية والوزن ومن ذلك قوله :

وزنبقة عذب الثنايا وجدتها ... على خطة فيها لذي اللب مألف
فأصلتُ حر السيف في حر وجهها ... وقلبي عليها من جوى الوجد يرجف
نفرّت كما خرّت مهاة أصابها ... أخو قنص مستعجل متعسف
سيقتلني حزناً عليها تأسفي ... وهيهات ما يجدي عليّ التأسف

حدثت فصول الفاجعة المروعة على مرأى من الزنيم الخبيث أبي الطيب الذي كان يرقص فرحاً لنجاح الشرك الذي نصبه لزوجة أمينة تحمل في أحشائها ثمرة حب طاهر ولصديق وفيّ كان المثل الأعلى في المروءة والمودة ، وبعد أن شفى غليله الملهوب برشاش

الدم المطلول انسلّ في جنح الظلام الى داره جذلاً مهللاً !

« اضطربت نجوم الليل الساهية [1] وأومضت عيونها الناعسة وميض الجوع و شتدّ اصفرارها لما لمحته من شقّ الباب المفتوح — باب مقصورة ورد حيث كانت السعادة بالأمس مورقة مزهرة فجاء منجل القضاء و حصدها قبل أن تينع وتثمر

وهبّ نسيم لطيف انقلب بعد قليل ريحاً عنيفة صدمت الباب فأطبقته بشدّة كأنها تريد أن تمنع عيون السماء من رؤية جريمة ارتعدت لها سكينة الافلاك فأفاق ديك الجن من ذهوله المسموم على صوت إغلاق الباب ونظر الى جثة بكر المنبسطة أمامه على الأرض ثمّ الى جثة ورد وأمسك بيدها كأنه يريد إيقاظها من سُبات لطيف وأمعن في النظر الى تلك القامة البارزة المحاسن التي لم يستطع الموت أن يشوّه جمالها وتجلى له في تلك الدقيقة جسم ورد ممدداً على المرج الأخضر بلا حراك بعد أن انتشله من النهر فغسلت مراجل حنقه لدى تصوره أن سواه كان يضم ذلك الجسم ويداعبه فنظر الى فوق نظرة لو كانت لها قوة لهزت أركان السماء وأفلت يد ورد بالتمنّزاز فسقطت واهية متروكة وحوّل وجهه عنها وقد أوشكت أن تنبجس من مآقيه دموع اليأس والحنق — دموع لم يبكها آدم على جنته المفقودة ولم يذرف ابليس مثلها على سمائه الضائعة !

ثمّ تغلبت عليه عاطفة لطيفة أغرقت حنقه ويأسه في بحر من التنامي فشعر بميل واندفاع الى أن يكب على جثة حبيبته فيقبلها عضواً عضواً ، ويغسل بدموعه آثار الدم على الجرح الواسع في صدرها مستغفراً ، نادماً متوجعاً متضرعاً ناسياً ما حدث ، أفليس هو الذي كان يؤمن بأن الجمال والكمال واللذة حصرت في كيان زوجته اللطيفة كما تحصر الخمر في كاس تجمع بين اللذة والطرب والرقة ، أليس هو الذي كان يتوق الى جرعة من تلك الكأس ؟ ولكنه أهرقها وحطمها بيده !

فوضع يده على قلبه المتفطر وقد علم أن المحور الذي كان كيانه يدور حوله انكسر وتحطّم ورأى العوالم التي كانت تسير في فلك حياته تتلاطم وتتساقط الى الهاوية ، وشاهد الحاضر القاتم يمزق ببراثينه جسم المستقبل اللطيف شذر مذر وأبصر دم الأيام المقبلة

(١) المجموعة القلمية ص ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣

يتطاير في كل الجهات والشمس تنكسف وحوت الموت والظلام يبتلع ذرات الأثير المنيرة » اه

هنا فاضت نفسه ألماً آثار الشعر وفجّر الدمع وكلاهما عصارة الكآبة فقال مخاطباً وردا :

ليتني لم أكن لمطفك نلتُ والى ذلك الوصال وصلتُ!

الى آخر الابيات التي مرّت بنا .

وتذكّر ديك الجنّ ما ألمّ بقلبه الهتوف باسم ورد والصداح بذكرها فاسترسل يخاطبه :

لِمَ اضطرابك يا قلبي وعهدي بك هادئاً في المُلمات ! صبوراً على عوادي الحياة أراك تخفق بشدة واسمع وجيبك يدقّ في حنايا أضلعي ! أراك تلاطم أمواج نفسي وأنت تعرف ضعفي وجبلتي .

أجبني يا قلبي ! فقد أصبحت يائساً من الحياة وتراني أنظر إليها بمنظار شديد السواد !

أجب ! يا قلب فسكوتك يعذب جسمي !

ها هي نار شديدة الضرام تتغلغل في أحشائي ، ولم يبقَ في الجسم الناحل خيط أمل ورجاء ! وما من سبيل للعيش والدم يتدفق من صدر ورد !

ها هو القلب يتكلم بعد أن يئس من الحياة فاسمعوه يتمتم :

لم أتمتع بالوجود طويلاً !

وكل سعادتي كانت فيه آمالاً وأحلاماً !

وهأنذا أقضي قبل أن أحقق بعض آمالي وأحلامي !

« ثم التفت نحو [1] جثة بكر وقد نسي ما تصور من خيانته ، وتمثله بقربه خلاً وفيّاً يقاسمه السراء والضراء فقال يخاطب روحه الهائمة :

قلْ لمن كان وجهه كضياء الشمس في حسنه وبدر منير

كنت زين الاحياء إذ كنت فيهم ثم أصبحت زين أهل القبور

خنتني في المغيب والخون نكر وذميم في سالفات الدهور

(١) مجموعة الرابطة القلمية ص ١٣٣ و١٣٤

فشفاني سيفي وأسرعَ في جزّ التراقي قطعاً وحزّ النحور

بأبي أنت في الحياة وفي المو ت ويوم الثرى ويوم النشور !

ولّى الليل متعثراً بأذياله يكفكف عبراته تاركاً وراءه ديك الجن بين الجثتين ، طوراً يبكيهما وطوراً يعاتبهما ، وطوراً يهم أن يدوسهما بقدميه حنقاً وتشفياً »

انثالت هذه الصور والأفكار على خاطر ديك الجن فبارح المكان وهو يردد الآية الكريمة : « الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين [1] ! » .

---

(١) سورة الزخرف

صدى الجريمة

— ٤ —

استيقظت حمص من غفوتها على وشوشة فغمغمة فجهارة . فهي تتحدث ذلك الصباح عن فاجعة تسربت أنباؤها الى بعض القصور ثم ما لبثت ان غزت المدينة عرضاً وطولاً ، وتناهت الى السلطان الذي اهتز للجريمة حيث ان القتيلين من عيون الامر الحمصية !

أما ديك الجن الذي خضّب سيفه بنجيع الضحيتين فقد ركن الى الفرار حيث اختفى في دار صديق له بدمشق خشية ان تنوشه سيوف الثائرين ، ولبث في حمى صديقه الى أن شفع له لدى السلطان محبه الأمير احمد بن علي الهاشمي فبعث ذلك بأمره الى والي دمشق طالباً تأمين شاعر حمص وتطمين خاطره القلق فرجع ديك الجن الى حمص دامع الطرف ، مغموم الخاطر ، جزوع النفس :

« يبكي على روض غرام [1] ذوى ما فيه من زاهر ومن ريّق ! »

وبعد ان هجعت بلابل مخاوفه ، ذكر اخوانه موت أبي الطيب إثر إداء انتاب صدره وقد صرّح قبيل وفاته ، أمام رهط من الشهود ، بتفاصيل المؤامرة التي نسج خيوطها وغزل فتائلها انتقاماً من بكر وورد وما دسه عليهما من شائعات لفقها شفاء لغليله من شاعر حمص والعاصي وهو الخصم القديم !

وبكر صديق ديك الجن والضالع معه منذ الطفولة ، وكان لها من الليالي الملاح والهوى الفضاح . ما تذكره عذارى حمص في سالفات العصور ، ووره تلك الزهرة التي صانت عرضها عن لوثة أبي الطيب الذي نصب لصيدها الحبائل .

مجمع ديك الجن بهذه الاعترافات ووقف على تفاصيل المؤامرة فدارت به الدنيا دورتها حول الشمس فأنهد على الفور نادماً على قتلها :

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

---

(١) من قصيدة للشاعر النابغ المرحوم فوزي المعلوف

روّيت من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتيّ من شفتيها
قد بتّ سيفي في مجال وشاحها ومدامعي تجري على نهديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيء أعز عليّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها وأنفت من نظر الحسود اليها

ارتجل ديك الجن هذه المرثاة [1] التي تنضح أبياتها بالدمع الغزير وكاد يودع عقله لولا عصبة من اخوانه عقدت النية على مسامرته والترفيه عنه .

وكانت خاتمة المطاف ان وجد السلوى والعزاء في الخمر بعد أن جبل كأسين إحداها من تراب قبر وود والأخرى من تراب قبر بكر وعند ما يجلس للغبوق كان يضع كأس ورد عن يمينه وكأس بكر عن يساره ، مترعتين خمراً ثم يقبل على شرب كأس ورد ظناً منه انه يلثم شفتيها ويتصوّرها جالسة بجانبه تقاسمه على عادتها لذاذات الهوى وتسامره بأحاديثها الغليّة ودعاباتها المستملحة فينشدها راثياً قوله الذي سرّ بنا ومنه :

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الرّدى بيديها

ثم ينقلب الى كأس بكر ويلتفت الى يساره مكفكفاً دمع عينه السخين ومنشداً :

يا سيف ان ترم الزمان بغدره فلأنت أبدلت الوصال بهجره
قمر أنا استخرجته من دجنة لبلبتي وزففته من خدره
فقتلته وله عليّ كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائم والحزن ينحر مقلتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده بالحيّ حلّ بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه وتكاد تخرج قلبه من صدره

وفي بعض الروايات ان أخت بكر كانت تترصد بديك الجن كي تفتك به وحينما تمكنه يرثي أخاها متأسفاً بهذه الأبيات أجابته بقولها :

---

(١) يعد مؤرخو الادب العربي ديك الجن زعيم الرائين وفي هذا يقول صاحب (العمدة) :
« أبو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء لكن ديك الجن أشهر منه في هذا الباب وله طريق انفرد بها »

يا ويح ديك الجن بل تبًّا له ماذا تضمن صدره من غدره !
قتل الذي يهوى وعمَّر بعده يا رب لا تمدد له في عمره !

ثم يسرف في اللوعة والبكاء حتى تختلط خمرته بدموعه فيخاطب وردًا بقوله :

أساكن حفرة وقرار لحد مفارق خلة من بعد عهد
أجبني ان قدرت على جوابي بحق الودّ كيف ظللت بعدي ؟
وأين حللت بعد حلول قلبي وأحشائي وأضلاعي وكبدي ؟
أما والله لو عاينت وجدي إذا استعبرت في الظلمات وحدي
ومُدَّ تنفسي وعلا زفيري وفاضت عبرتي في صحن خدّي
إذاً لعلمت أني عن قريب ستحفر حفرتي ويُشق لحدي
ويعذلني السفيه على بكائي كأني مبتلىً بالحزن وحدي
يقول : قتلتها سفهاً وجهلاً وتبكيها بكاءً ليس يُجدي
كصياد الطيور له انتحاب عليها وهو يذبحها بجدّ

ثم يناجي بكراً كأنه يشاطره رأيه في ذمّ الزمان ووصف ريبه وعواديه قائلاً :

ما لامرىء بيد الدهر الخؤون يد ولا على جلد الدنيا له جلد
طوبى لأحباب قوم إن أصابهم من قبل أن عشقوا موت فقد سعدوا
وحقهم انه حقٌّ أضنَّ به لا ينفدنَّ لهم دمعي كما نفدوا
يا دهر إنك مسقيٌّ بكأسهم ووارد ذلك الحوض الذي وردوا
والخلق ماضون والأيام تتبعهم تفنى ويبقى الإله الواحد الصمد

على أن الشراب لم يطرد عن الشاعر رؤى أحزانه ، وطيوف أشجانه ، فكان يتصوّر نفسه ، بعد أن تتملكه سورة الخمر ، في منفى ناءٍ ، بعيداً عن الأهل والخلاّن ، وإذا بأصوات تنبعث من جوف الصخور هاتفة به هتاف اللوم والتثريب

ما بالك اخترطت سيفك وأهويت به على زوجة ضحّت بالعرف والعادة ، وداست التقاليد ، ولبّت هتاف القلب ونداء الحب ، وضلعت معك في دينك الحنيف ؟ !

وعلى صديق كان في ولائه وإخلاصه لك أوفى من السموأل ؟ !

فعلامَ هدمت برج سعادتك يا قاسي ! ؟
ولِمَ خنقت بلبل شدوك أيها المأفون ! ؟

* * *

كانت هذه الأصوات تتراءى للشاعر كلما حسا شراباً وتملكته سورة الصهباء ، فتتشنج أعصابه ويجمد الدم في عروقه حتى يستغيث صحبه على نشيجه ، فيأخذوه الى فراشه حيث يستسلم للسكرى ، ويمضي النهار نائماً !

وعند ما تلمّ إلهة النهار مراسيلها ، وتتوارى في الأفق ، يدلف إليه سُمّاره ويحلقون حول خوان الشراب ، فتتراقص أمامه تلك الصور عينها ويأخذ بالنحيب حتى مطلع الفجر !

كأن قلبي إذا تذكرها فريسة بين صاعدي أسد

هكذا كانت حياة ديك الجن منذ أصاب سهم القاتل قلبين يفيضان له مودة وولاء ، وهكذا لبث ضميره معذباً ، دائم القلق والاضطراب ، حتى شعر ذات يوم بدنو أجله فأنشد :

أما والله لو عاينت وجدي إذا استعبرت في الظلماء وحدي
ومُدّ تنفسي وعلا زفيري وفاضت عبرتي في صحن خدي
إذاً لعلمتَ أني عن قريب ستحفر حفرتي ويشقّ لحدي

كرّت الأيام ومرّت الأشهر على فجيعة ديك الجن المزدوجة ، وهو فريسة الدمع الهتون وأفاق ذات يوم على الربيع يكسو سهول حمص ومروجها فرأى الغدير والبلبل والساقية وشقائق النعمان والطبيعة كلها ضاحكة باسطة ذراعيها مرحّبة بفصل يدغدغ نسيمه الأجفان ويبعث الحيوية والنشاط في نفوس مكدودة وأطراف منطو بعضها على بعض من لذعات الشتاء القارص ، عندها أحسّ شاعر حمص أن قلبه طليق من كل قيد وأسار ، فمدّ يده الى الحياة وابتسم للنور فأنطقه شيطان شعره قصيداً وأنشد :

نقّل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوًى جديد أو كوصل مقبل
ما لي أحسّ الى خراب مقفر دُرست معالمه كأن لم يؤهل

وما كاد يستقبل هذه الصورة الحلوة ، صورة السلوى والعزاء ، ويرى نفسه في أحضان الطبيعة الضاحكة حتى زايله شعوره وعادت اليه أحزانه كلما ردّد اسم ورد واستذكر أياماً

مشتهاة مرّت كنغمة الغناء العذبة أو كلحن الموسيقى الجميل ، وعاوده شيطان شعره فأنشد :

سأطوي الهوى تحت الحشا طي نازح ... قضى وطراً ان لم تَبُحْ عبراتي

وأعلم ان ما فات ليس براجع ... وان قريباً كل ما هو آت

انثالت هذه الذكريات المروّعة على مخيلة ديك الجن فآب الى وكره وأسرف في شرابه حتى اذا انتابته سورة الحميّا لبث ، في غسق الليل ، يرقب خيال ورد الذي كان يتراءى له غير ان طيفها لم يوافه تلك الأمسية عندها تفجرت عيناه بالدمع السخين وراح ينشد قلبه الكسير من شعره :

أما آن للطيف ان يأتيا ... وان يطرق الوطن الدانيا

واني لأحسب ريب الزمان ... يتركني جسداً باليا

سأشكر ذلك لا ناسياً ... جميل الصفاء ولا قاليا

وقد كنت أشكره ضاحكاً ... فقد صرت أشكره باكيا

وما لبث ان أسرف في عويل لاعج اهتزت له جوارحه المتألمة وكانت روحه تفيض مع كل عبرة وشعره ينزف من جرح لا يدرك الناس أغواره !

وكأني بربة الشعر قد أحست ليلتئذٍ بقرب مصرع الهزار المنتحر فسخت بالوحي وشرع يردد أبياتاً من مرثاة قالها في مصرع ورد :

لو كان يدري الميت ماذا بعده ... بالحيّ حلّ بكى له في قبره

غصص تكاد تفيض منها نفسه ... وتكاد تخرج قلبه من صدره

وله فيها على طريق الحوار :

جاءت تزور وسادي بعدما دفنت ... فبتُّ ألثم خدّاً زانه الجيد

وقلت : قرّة عيني قد بعثت لنا ... فكيف ذا وطريق القبر مسدود ! ؟

قالت : هناك عظامي فيه مودعة ... تعيث فيها بنات الأرض والدودُ

وهذه الروح قد جاءتك زائرة ... هذي زيارة من في القبر ملحود !

وأبلغ ما قيل في شدة الحب ونهاية التقرب الى المعشوق ما أنشده ديك الجن بعد ان وارى (ورداً) رمسها وأضحت أثراً بعد عين :

بانوا فصار الجسمُ من بعدهم ما تصنع الشمسَ له فَيَّا
بأي وجه أتلقاهمُ اذا رأوني بعدهم حيًّا ؟!

ولما انبلج الصباح وأرسلت ذكاء خيوط أشعتها على الكون وجد ديك الجن جثة هامدة وقد سالت روحه مع دموعه وزفراته .

* * *

« هذه قصة الشاعر الحمصي [1] عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن الذي أحبّ وقتل وندم ثم مات روتها لي همساً أمواج العاصي في أصيل يوم من أيام الصيف عند ما كنت أطالع بعض أشعار في كتاب قديم وأكدتها لي نسمات الوعر العاتية ، وسمعت بين أنات الخرير وزفرات الهزير صوتاً خفيًّا يقول :

إن الحياة بأسرها تدور حول محور ذي قطبين هما : الحب والموت ! » إنها قصة حب وبغض ووشاية وثأر ضمن اطار من الدمع والدم !

---

(١) نسيب عريضة في (مجموعة الرابطة القلمية) ص ١٤٠

مصادر البحث

١ — الأغاني — الجزء الثاني عشر — لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني

٢ — ديوان المعاني — الجزء الأول والثاني لأبي هلال العسكري

٣ — الموضح في مآخذ العلماء على الشعراء لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني

٤ — كتاب عجايب المخلوقات وغرايب الموجودات للامام زكريا بن محمد بن محمود القزويني

٥ — حياة الحيوان الكبرى — الجزء الاول للشيخ كمال الدين الدميري

٦ — نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري
— الجزء الثاني والثالث والرابع —

٧ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان

٨ — كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري

٩ — العمدة لابن رشيق القيرواني

١٠ — محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني

١١ — المختار من شعر بشار الخالديين

١٢ — تاريخ الآداب العربية لكارل بروكلمن

١٣ — دائرة المعارف الاسلامية

١٤ — مجموعة الرابطة القلمية طبع نيويورك

١٥ — شعراء الشام لخليل مردم بك